الباب الثانى

الصراع اللغوى فى المنطقة

الفصل الأول

مراحل الصراع

جاءت اللغة العربية إلى المغرب مع جيوش الفتح الإسلامى ، فوجدت بها عددا من اللغات تبعا لتعدد الأجناس بها . فالبربر وهم سكان البلاد الأصليون كانوا يتكلمون البربرية . والأفارقة وهم الذين اختلطوا من أهل البلاد بالروم ودخلوا فى خدمتهم كانوا يتكلمون لغة مزيجا من اللاتينية والبربرية[1] . والفرنجة من الحكام وأتباعهم من الروم كانو يتكلمون اللاتينية . والفينيقيون – وهم من أصل سامى ، وقد هاجروا إلى شمالى إفريقية قبل عدة قرون من عصر المسيحية[2] – كانت لغتهم هى الفينيقية . وقد اتسع نفوذ لغتهم حتى كانت تستعمل إلى جانب اللاتينية كلغة رسمية ، كما كانت لغة متداولة حتى الفتح العربى [3] . ويذكر الأستاذ الكعاك أن سكان البلاد الأصليين عندما أسسوا

---

(١) شيت خطاب ١/٢٠ .

(٢) اعتبر أحمد النائب الأنصارى الفينيقيين أقدم الأمم التى استوطنت ليبيا ، ويقول إنهم قبل ذلك كانوا يستوطنون فلسطين وسواحل الشام ، وكانوا يترددون على شمالى إفريقية منذ القرن ١٢ ق . م . وأنشأوا على سواحله محطات تجارية لنقل بضائعهم (المنهل العذب ١/٢٧) . وبدأ الفينيقيون استيطانهم عن طريق شراء إحدى نسائهم الحاكمات قطعة أرض بنت عليها مدينة قرطاجنة سنة ٨٤٠ ق م ، ثم وسعوا نفوذهم . وبعد ذلك أخذوا يغيرون على القبائل البربرية (الزاوى : تاريخ الفتح ص ٢٣ ، ٢٤) .

(٣) حسن سليمان محمود ص ٨١ . وكلمة «لبدة» مثلا اسم فينيقى معناه «الصحراء الخالية من العمران» (المنهل العذب ١/٢٤) . ويعطى الدكتور مصطفى كمال عبدالعليم فى كتابه «دراسات =

ممالك مستقلة كانت إحدى اللغتين الرسميتين هى اللغة البونيقية [١] ، وبها ألف البربر تصانيفهم . ولم يكن بربرى مثقف لايعرف اللغة البونيقية [٢] . وقد استمرت الكتابة البونيقية مستعملة حتى فى معاملات الناس اليومية بالإضافة إلى شئونهم الإداريةوالمالية [٣] .

وقد دخلت اللغة العربية فى صراع مع هذه اللغات جميعها ، ولكن أمر الصراع كان هينا بالنسبة لما عدا اللغة البربرية ، فقد كان أصحاب هذه اللغات

= فى تاريخ ليبيا القديم» تفصيلات أكثر عن وضع اللغة الفينيقية فيقول : «عثر على كثير من النقوش المكتوبة باللغة الفينيقية ولكن بحروف لاتينية . ولعل تلك الفينيقية كانت لغة المجتمعات الليبية المحلية فى هذه المناطق البعيدة عن الساحل . وأغلب هذه النقوش يرجع إلى فترة متأخرة عن بداية القرن الثالث الميلادى ... وهذه النقوش لها طابع رسمى ، وهذا يرجح أنها كانت اللغة الرسمية الثانية بعد اللغة اللاتينية ، على الأقل فى عصر أغسطس ، (ص ٩٨) .

(١) اللغة البونيقية لغة مزيج من البربرية والفينيقية (دبوز ١/٦٤) . ولكن ذكر الأستاذ محمد مصطفى بازامة أن البونيقية مصطلح أطلقه علماء الغرب على فينيقية قرطاجنة تمييزا لها عن فينيقية أرض كنعان فى الشرق (ليبيا هذا الاسم فى جذوره التاريخية ص ١٨ هامش رقم ١٢) .

(٢) مظاهر الحضارة الفينيقية فى طرابلس ص ١٢٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٧ .

ولكن ماذا كان وضع اللغة اليونانية فى البلاد ؟ يبدو أنها كانت ذات نفوذ فى إقليم برقة فقد عثر على نقوش لقرارات أصدرها الامبراطور أغسطس وقد كتبت باللغة الإغريقية (دراسات فى تاريخ ليبيا القديم ص ١٥٦ ، ١٥٧) . وفيما عدا ذلك لانجد لليونانية ذكرا أو نفوذا فى ليبيا . حتى البيزنطيون الشرقيون (أو كما سماهم العرب الروم) الذين كانوا يحكمون البلاد حتى الفتح الإسلامى لم يتخذوا اللغة اليونانية لغة رسمية على الرغم من قوة النفوذ الهيلينى وقتها . فقد كانت «الدولة رغم الدوافع التى تدفعها نحو الشرق تبدو مواصلة لتاريخ روما ، فبقيت اللغة اللاتينية لغة رسمية رغم ما كان فى ذلك من غرابة . ومن أوائل القرن السابع إلى منتصف القرن التاسع أسرعت الدولة فى تحولها إلى دولة شرقية» (الامبراطورية البيزنطية الشرقية ص ٣٣٣ – ملحق بكتاب الامبراطورية البيزنطية لنورمان بينز) .

قلة قليلة ، وكانت لغاتهم تستخدم فى مجالات محدودة ، وبين أوساط معينة ، بالإضافة إلى استخدامها فى الدواوين ، فلم تكن أى منها تتمتع بمميزات اللغة العامة ذات النفوذ والقوة فى مختلف أنحاء الإقليم . هذا بالإضافة لما هو ثابت أن معظم الحكام ومن سار فى غبارهم قد غادروا البلاد بعد استتباب أمر المسلمين ، وتركوا المجال للفاتحين ولغتهم . وبذلك خلا الميدان للغتين العربية والبربرية ، وساروا فى صراع طويل ما تزال آثاره باقية حتى وقتنا الحاضر .

وإنه ولئن كان من الثابت أن صراع اللغة العربية مع البربرية لم يدم طويلا – كما دام بين العربية والقبطية فى مصر مثلا – فإن نتيجة الصراع كانت فريدة، إذ أدت إلى تقاسم مناطق النفوذ فانحسر ظل البربرية ، وانحصرت فى مناطق معينة من المغرب العربى وهى مناطق التجمعات البربرية حتى الآن ، وسادت اللغة العربية أو انتشرت فى سائر أنحاء المغرب ، ولكن مع امتداد سيادتها على مناطق البربر باعتبارها مناطق مزدوجة اللغة .

وقد حكم صراع اللغتين العربية والبربرية نفس العوامل التى حكمت الصراع بين العربية والقبطية وهى :

١ - العامل السياسى .

٢- العامل الاقتصادى .

٣- العامل الدينى .

٤- الفترة الزمنية التى تسود فيها العوامل السابقة كلها أو بعضها .

٥- مدى اندماج أصحاب اللغة الوافدة مع أصحاب اللغة الأصلية ، وطريقة معاملتهم لهم .

٦- عامل الهيبة أو التفوق الذاتى للغة .

٧- درجة قرابة اللغتين المتصارعتين .

وقد لعبت هذه العوامل كلها - أو معظمها - دورا هاما فى صالح اللغة العربية ، وتعاونت فيما بينها لإحلال اللغة العربية فى المغرب محل البربرية باعتبارها اللغة العامة المشتركة ، وتقليل نفوذ اللغة البربرية إلى أقصى حد .

فبالنسبة للعاملين الاقتصادى والسياسى ، نجد أنهما عملا فى المغرب - كما عملا فى مصر - فى صف اللغة العربية . فمما لاشك فيها أن القوة كانت بأيدى العرب الذين بذلوا أقصى وسعهم لتعريب البلد ، ونشر الإسلام ، وقد أدت عمليات التعريب ونشر الإسلام إلى نتائج اقتصادية هامة كان لها أثرها فى دعم اللغة العربية ورفع شأنها فى المغرب . وقد كان من أهم الخطوات التنفيذية التى خطاها العرب ، والتى قوت جانبى الإسلام واللغة العربية فى المغرب ما يأتى :

١- إحلال اللغة العربية محل اللغة اللاتينية أو الفينيقية فى الدواوين والمكاتبات الرسمية .

٢- تهجير - أو هجرة - عدد من القبائل العربية إلى المغرب ، بقصد الإقامة الدائمة .

٣- فرض أنواع مختلفة من الضرائب على غير المسلمين .

٤- قصر الوظائف الرئيسية فى الدولة على العرب أو المسلمين .

فإذا انتقلنا إلى العامل الدينى نجد أنه من الثابت أنه لم يكن فى المغرب ضغط مباشر على غير المسلمين ليعتنقوا الإسلام[١] ، ولكننا نجد من الثابت أيضا أنه كانت هناك امتيازات معينة يتمتع بها المسلمون باعتبارهم الطبقة الحاكمة والمرشحين لتولى الوظائف القيادية أو الرئيسية . وقد أغرى هذا وذاك مجموعة من المواطنين باعتناق الإسلام لينعموا بالمساواة فى ظله، أو ليحققوا مصلحة دنيوية[٢]. بل منهم من لم يكتب بذلك فادعى أصله العربى وانتسب إلى إحدى القبائل العربية[٣] . ومن ناحية أخرى نجد أناسا آخرين – وهم الكثرة – يعتنقون الإسلام طواعية واختيارا مدفوعين بما يقدمه لهم من إقناع عقلى وارتياح نفسى وإشباع عاطفى ، وبما يحويه من مبادىء وتعليمات سبق صيتها دخول الجيش العربى .

---

(١) يدعى Garrot أن من بقى على مسيحيته حتى عهد عمر بن عبدالعزيز (سنة ٧١٩) قد أجبر على الدخول فى الإسلام ، أو الخروج من المغرب ، مما أدى بالبعض إلى الهجرة إلى أوربا وبالأغلبية إلى الدخول فى الإسلام . ويرد الأستاذ الميلى على ذلك بقوله : «والظاهر أن هجرة المسيحيين إذ ذاك كانت اختيارا ، فقد فروا أمام انتشار الإسلام ورسوخه بهذا الوطن إلى حيث يأمنون على ذريتهم عدم سريان الإسلام إليهم (تاريخ الجزائر ٣٤٧/١ ، ٣٤٨) وسيأتى لهذه النقطة مزيد بيان فيما بعد .

(٢) سبق أن ذكرنا نموذجا من هذا النوع إسلام يعقوب بن كلس اليهودى الذى اعتنق الإسلام لتحقيق مكاسب دنيوية . ولكن ليس معنى هذا أنه هو القاعدة بل هو فى الحقيقة الشذوذ الذى يثبت القاعدة . وعلى هذا فلا وجه لما تقوله دائرة المعارف الإسلامية : «والواقع أن المصلحة تغلبت فى إسلام البربر على الاقتناع لأن قواد العرب عمدوا إلى تجنيدهم فى جيوشهم فأسلموا طمعا فى الغنائم» (مادة بربر) .

(٣) يقول مؤلفا «ملامح المغرب العربى» : «يدعى كثير من البربر الذين استعربوا أنهم من أصل عربى، شأنهم فى ذلك شأن سكان البلاد الأخرى التى دخلها الإسلام» (ص ٦٢) ، وتزعم هوارة أنهم قوم من اليمن جهلوا أنسابهم (البلدان لليعقوبى ، مقتبس فى : ليبيا فى كتب الجغرافيا والرحلات ص ١١) . وانظر سكان ليبيا عند اليعقوبى للدكتور عبدالقادر طليمات ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

وهناك أمثلة أخرى تمت فى بلدان أخرى من العالم العربى مثل ما حدث فى مصر وعرف بقضية القاضى العمرى كما سبق أن ذكرنا .

وعامل الإسلام يعد من الناحية اللغوية ذا أهمية قصوى فى أى بلد من البلاد التى فتحها المسلمون . وقد كان من الواضح ارتباط تقدم اللغة العربية وانتشارها بتقدم الإسلام وانتشاره فى مصر وفى كل الأقطار المفتوحة على السواء . وقد لعب هذا العامل فى المغرب دورا أقوى مما لعبه فى بعض البلدان العربية الأخرى كمصر مثلا[١] . لعدم ارتباط أى من الأديان التى كانت موجودة فى المغرب إذ ذاك بلغة معينة يحميها ويعتبرها لغة طقوسه وشعائره . وقد سبق أن تناولنا بالشرح موضوع الأديان التى كانت موجودة فى المنطقة قبل الفتح الإسلامى ، ونقاط الضعف فيها ، كما بينا عظمة الإسلام بالنسبة لها ، وعوامل القوة فيه .

وأما الفترة الزمنية التى ساد فيها الحكم العربى ، فقد كانت طويلة ومستمرة لدرجة مكنت للإسلام أن يرسخ ، وللغة العربية أن تسود . ولذلك لم يحدث فيما بعد أى محاولة للخروج عن دائرة الإسلام ، أو أى اتجاه لنبذ اللغة العربية .

وأما العامل الخامس ، وهو مدى اندماج أصحاب اللغة الوافدة بأفراد الشعب وكيفية معاملتهم لهم ، فقد سبق أن ذكرنا ما حققه الإسلام من مساواة بين العرب وسكان البلاد من البربر ، كما سبق أن ذكرنا سياسة الحكام فى

---

(١) كانت المسيحية فى مصر قوية راسخة ، لذلك كان تحول السكان إلى الإسلام بطيئا وبخاصة فى الأماكن النائية من مصر . (انظر : جرمة فى عصر ازدهارها ص ١٧٤) وقد أثر هذا على معركة اللغة العربية فى مصر فأطال أمدها ، إذ كان ارتباط اللغة القبطية بالديانة المسيحية ، واتخاذها اللغة الرسمية فى الصلوات والكنائس من العوامل التى أدت إلى التمسك الشديد بها والإبقاء عليها ما أمكن .

اجتذاب نفوس البربر وإشعارهم بروح الأخوة والمساواة . ومن ناحية أخرى ، كان اعتبار المسلمين من بقى من الروم والأفارقة موالى لهم - وليسوا كالبربر مساوين لهم فى الحقوق والواجبات - واعتبار أرض الروم مفتوحة عنوة لا صلحا ، سببا من أسباب اختفاء العنصر الرومى واللاتينى من البلاد شيئا فشيئا ، حتى تلاشت آثارهم من البلاد تقريبا [١] . وقد أدى هذا إلى إرضاء البربر من ناحية ، وإلى منحهم فرصة النهوض ، وتحمل المسئولية ، والأخذ بأسباب الحضارة من ناحية أخرى .

وهناك فرض آخر لاندماج الشعبين لا يستبعده الدكتور محمد عوض محمد فى كتابه «الشعوب والسلالات الإفريقية»[٢] . وهو قرابة السلالات ، أو القرابة الروحية . فالكتاب العرب حين يتحدثون عن القبائل العربية فى جزيرة العرب وما يليها من الأقطار ، كثيرا ما يشيرون - كما فعل صاحب صبح الأعشى - إلى أن البربر من سكان إفريقية الشمالية لهم صلة نسب قديمة بالعرب. ومن الكتاب من يرجع أصل البربر إلى قبائل حمير مستندين إلى الرواية القائلة بوجود غزو يمنى لهذه البلاد فى القديم ، وإن كان ابن خلدون ينكر ذلك ويستبعده بشدة[٣] .

وأيا ما كان الأمر ، وحتى على فرض اعتبار البربر حاميين والعرب ساميين، فقد سبق أن عرضنا وجهات نظر الباحثين فى الأنساب حول صلة النسب القوية التى تربط المجموعتين . ويضاف إلى هذا استيطان الفينيقيين بليبيا

---

(١)حسن محمود ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) ص ٣٣٨ .

(٣) راجع الزاوى : معجم ص ٣٤٢ ، تاريخ الفتح ص ١٧ .

فى فترة سحيقة من التاريخ ترجع إلى ما قبل ميلاد المسيح بقرون - كما سبق أن بينا - والفينيقيون ساميون لاشك فى ذلك ، ووجودهم بين البربر فى جماعات كبيرة قد مازج بين العنصرين إلى درجة ملحوظة .

ويشير الشيخ الزاوى إلى ما حدث من اندماج بين العرب والبربر فى أكثر من موضع من كتابه «معجم البلدان الليبية» كقوله عن أولاد بوماضى : «إنهم قبيلة عربية لم تحافظ على أصولها العربية بل التحمت مع بعض القبائل البربرية بالمصاهرة والجوار ، فحصل بينهما امتزاج كبير»[١] . وقوله : «لما كثر العنصر العربى فى إفريقية وتغلبوا على أمصارهم وسكنوا مدنها وقراها وأصبحوا أكثرية، انحاز البربر إلى جبل نفوسة وزوارة واندمج بعضهم الآخر فى العرب»[٢] . وتعطى دائرة المعارف الإسلامية أمثلة أخرى للاندماج فتقول : «استقرت قبيلة بنى قرة ، وقبيلة هَيْب وهم بطون من سليم فى برقة وامتزجوا بأهلها امتزاجا يجعل من الصعب علينا الآن أن نميز بين ذريتهم وذرية أهل البلاد الأصليين»[٣] . وتقول فى مكان آخر متحدثة عن أثر الزحفة الهلالية - وسوف نتحدث عنها فيما بعد بشىء من التفصيل - وما ترتب على ذلك من نتائج : «تم اختلاط البربر بالعرب فى السهول والهضاب ، وهجرهم تدريجيا لغتهم وعاداتهم ، وفقدهم أيضا اسمهم القديم ، واستعاضتهم عنه باسم شخص وصلوا به نسبهم ، بل نستطيع أن نقول إنهم استعربوا»[٤] .

---

(١) ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) ص ٣١٥ .

(٣) مادة برقة .

(٤) مادة بربر .

ومن الثابت تاريخيا كذلك أن سيل الهجرة إلى الشمال الإفريقى لم ينقطع طوال عدة قرون ، بل يرى سلجمان أن كثيرا من العرب المهاجرين أو المهجرين قد آثروا الاستيطان فى المغرب الأدنى دون سائر الشمال الإفريقى نظرا لطبيعته الصحراوية الملائمة[١] .

فإذا انتقلنا إلى العامل السادس نجد أن تفوق أى لغة وتمتعها بالهيبة يرجع إلى قيمتها الذاتية . وفى حالة اللغة العربية نجد قيمتها عظيمة ، وتفوق إلى حد كبير القيمة الذاتية للغة البربرية فى ذلك الوقت . فهى من ناحية لغة الحكام ، ومن ناحية أخرى لغة الدين والقرآن والنبى وهى بالإضافة إلى هذا وذاك لغة حضارة عظيمة ، وثقافة تفوق أختها البربرية إلى حد كبير ، قد لايسمح حتى بالمقارنة .

ويكننا أن نقدر الفجوة بين اللغتين العربية والبربرية فى هذا الصدد إذا أخذنا فى الاعتبار الحقائق الآتية :

١- أن اللغة العربية كانت ذات تاريخ وأدب وثقافة من قبل ظهور الإسلام ثم انتشرت فى كثير من أنحاء العالم بعد مجيء الإسلام ، وتمثلت ثقافات وحضارات كثيرة ، مما أعطاها ميزة ضخمة وقيمة كبيرة . وبمرور الزمن ازداد هذا العامل قوة . فما أن جاءت العربية إلى معركتها الحاسمة مع البربرية حتى كانت قد أصبحت لغة ثقافة عالية .

٢- أن متكلمى البربرية لم يكونوا قد وصلوا إلى درجة من الحضارة تمكنهم من تثبيت لغتهم فى شكل أدب . فعلى الرغم مما عثر عليه من نقوش فى الصحراء تثبت كتابة اللغة البربرية ، لم يؤثر عن البربر أى كتابات أو مؤلفات

---

(١) محمد عوض ص ٢٣٩

ذات قيمة حتى عدة قرون من ظهور الإسلام . ولهذا يقول مؤلفا Libyan Notes : «لم تستعمل اللهجات البربرية قط لأغراض أدبية»[١] ، ويقول روم لاندو : «البربرية ليست لغة ثقافة»[٢] .

٣- أن البربرية لم تكن فى الحقيقة ذات لغة واحدة مشتركة ، وإنما كانت مجموعة من اللهجات ، وكان التفاوت بينها كبيرا [٣] . وكانت أشبه بلهجات القبائل العربية فى مرحلة طفولتها ، وقبل أن تأتلف وتتوحد فى لغة قومية واحدة هى اللغة المشتركة التى نزل بها القرآن الكريم[٤] . ويقول روم لاندو فى ذلك : قد نقول من قبيل المزاح إن هناك من اللغات البربرية ما يعادل ما هناك من قبائل بربرية[٥] .

٤- أن اللغة البربرية فى فترة احتكاكها باللغة العربية كانت فى موقف ضعيف بشكل واضح . فقبل ذلك بمدة طويلة كانت قد وقعت فريسة للغتين اللاتينية والفينيقية اللتين أصبحتا فيما بعد لغتى الكتابة الرسمية . وهذا يعنى أن الأعمال الكتابية الهامة كانت تكتب باللاتينية أو الفينيقية لا البربرية ، ويعنى بالتالى إضعاف اللغة البربرية إلى حد كبير .

ومن أجل هذا حين جاءت حركة الترجمة النشيطة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية لم يجد المترجمون شيئا يمكن ترجمته من البربرية ، ولا نعلم بوجود ترجمة من هذا النوع لأى عمل كان .

---

(١) ص ١١ .

(٢) أزمة المغرب الأقصى ص ٠٠ .

(٣) The Eastern Libyans ص ٧٣ .

(٤) تاريخ المغرب العربى لسعد زغلول ص ٥٧ .

(٥) أزمة المغرب الأقصى ص ٩٧ .

وأما العامل الأخير ، وهو درجة قرابة أو بعد اللغتين المتصارعتين ، فهناك آراء تضع العربية والبربرية فى مجموعة واحدة سواء أطلق عليها المجموعة السامية ، أو المجموعة الحامية السامية ، أو المجموعة الآفرو آسيوية . وقد سبق أن عرضنا هذه الآراء بشيء من التفصيل . ومعنى هذا أن العلاقة بين اللغتين موجودة ولا يمكن إنكارها .

فإذا أردنا أن نحدد المراحل التى قطعتها اللغة العربية فى صراعها مع البربرية فلابد أن نحلل العوامل والأحداث التاريخية ، ونرتبها ترتيبا زمنيا ، ونرصد نقاط التحول فى حياة كلتا اللغتين . وفى رأينا أن مراحل الصراع اللغوى فى المنطقة يمكن أن تقسم إلى ثلاث على الوجه الآتى :

١- مرحلة التعادل بين اللغتين .

٢- مرحلة اختلال ميزان القوى فى صالح اللغة العربية .

٣- مرحلة الاستقرار .

وإليكم بيان ذلك :

المرحلة الأولى : مرحلة التعادل بين اللغتين :

يمكن تحديد هذه المرحلة بالفترة المحصورة بين الفتح الإسلامى للمغرب الأدنى ونهاية القرن الأول الهجرى (= ٧١٨ م) . وهى مرحلة تتميز بوجود ازدواجية فى اللغة ، ومحاولة كل طرف من طرفى الصراع التغلب على مشكلة التفاهم عن طريق تعلم لغة الطرف الآخر ، أو على الأقل بضع كلمات من لغته ولا نشك لحظة فى أن التفاهم فى المرحلة الأولى من هذه الفترة كان يتم عن طريق المترجمين الذين يعرفون اللغتين . ويفترض الأستاذ حسن حسنى

عبدالوهاب أن هؤلاء التراجمة لابد أن يكونوا إما عربا من عرب الشام وفلسطين والحيرة - وكان كثير منهم قد امتزجوا بالروم وتعلموا لغتهم واعتنقوا دين النصرانية ، ثم حين ظهر الإسلام أسلموا والتحقوا بإخوانهم العرب - وإما أفرادا من قبط مصر ، وكان فريق كبير منهم يحسن اللسان اليونانى . ويؤيد ذلك ما روى عن الواقدى من أن عبدالله بن أبى سرح لما كان أمام مدينة سبيطلة [١] . وقبل محاربته لبطريق الروم (جرجير) «كان معه رجل من قبط مصر» ، وإما أفرادا من سكان الواحات المصرية الذى كانوا من سلالة البربر ، فيجوز أن الفاتحين اصطحبوا منهم أفرادا للترجمة [٢] .

وتتميز هذه المرحلة بما يأتى :

١- إتمام فتح المغرب الذى أتعب الدولة الإسلامية وكلفها من أموالها ووقتها الكثير . وقد تم هذا الفتح حوالى عام ٨١ أو ٨٢ هـ [٣] .

٢- توطيد حكم العرب فى المنطقة بعد حروب دامية ومعارك عديدة بلغت فى شرقى بلاد المغرب وحدها - فى رواية ابن خلدون - ثلاثمائة وقعة [٤] .

٣- اقتحام جيوش الفتح معاقل البربر فى الجبل منذ اللحظات الأولى للفتح الإسلامى . فبعد أن أتم عمرو بن العاص فتح طرابس وصبراته ذهب بجيشة

---

(١) تولى عبدالله بن أبى سرح مصر سنة ٢٥ هـ فى عهد الخليفة عثمان بن عفان . وقد قام بفتح إفريقية مرة ثانية ابتداء من عام ٢٧ هـ . وكانت سبيطلة عاصمة ملك جرجير ، وقد فتحها ابن أبى سرح سنة ٢٧ ، ثم فتحها مرة ثانية عام ٢٩ هـ لأن جرجير نقض العهد الذى أبرمه معه فى المرة الأولى (ولاة طرابلس، ص ١٥ - ١٨) .

(٢) ورقات ٦٢/١ - ٦٤ .

(٣) دبوز ١٠٧/٢ ، حسين مؤنس : ثورات البربر ص ٢٤٣ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية (بربر) .

إلى «شروس» عاصمة البربر فى الجبل ، ولم تلبث أن دخلها العرب فاتحين[١]

٤- حكم حسان بن النعمان الذى امتد من عام ٧٧ هـ إلى عام ٨٦ هـ[٢] . وتتميز فترة حكمه بما يأتى :

(أ) القضاء على الكاهنة وإزالة ملكها عام ٨٤ هـ . وبقتل الكاهنة حسن إسلام كثير من البربر ودانوا بطاعة العرب[٣] .

(ب) تدوين الدواوين ، وجعل ديوان فيه الكتبة والرؤساء المسئولون لكل وظيفة من وظائف الدولة .

(جـ) جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى الدولة ، بها ترفع الشكاوى ، وتحرر الرسائل ، ويكتب فى الدواوين .

(د) مساواته فى العطاء والرتب والمعاملة بين البربر والعرب .

(هـ) إقامته عمالا على النواحى من ذوى الحزم والدين .

(و) إنشاء المساجد فى المدن والقرى ، وإقامة الفقهاء فيها للصلاة وقراءة القرآن والوعظ والإرشاد والفتوى فى مسائل الدين .

(ز) اعتبر حسان أرض البربر وبلادهم مفتوحة صلحا لا عنوة ، وأقر البربر على ما فى أيديهم من أراض ، وألزم كل قبيلة بزراعة أرضها ودفع زكاتها إلى بيت المال .

---

(١) ولاة طرابس ص ١٣ .

(٢) السابق ص ٢٩ ، ٣١ .

(٣) السابق ص ٣٠ .

(حـ) ضرب حسان النقود للمغرب دنانير ودراهم وفلوسا . وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بنقود القوط والبيزنطيين ، وهى تحمل رسم ملوكهم[١] .

٥- فى أواخر هذا القرن صدرت تعليمات من الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى جميع الولاة والحكام - كما سبق أن ذكرنا - بعدم استخدام الذميين أولياء من دون الله ، والتهديد بعزل من يترك فى ولايته عاملا يدين بغير الإسلام . ومما جاء فى رسالة عمر فى هذا الصدد : «فلا تولين أمور المسلمين أحدا من أهل الذمة فتبسط أيديهم وألسنتهم ، وتذل المسلمين بعد أن أعزهم الله» . وعلى الرغم من أن المراجع قد سكتت عن بيان رد الفعل لهذه الرسالة فى المغرب ، إلا أننا نستنتج أنه قد حدث فيها ما حدث فى مصر عقب هذه التعليمات ، إذ أصدر حاكم مصر إذ ذاك وهو أيوب بن شرحبيل أوامره بإحلال المسلمين أو العرب محل الأقباط فى الوظائف العامة[٢] . ومع ذلك فنحن لانتوقع تطبيقا شاملا لهذه التعليمات فى هذا القرن ، إذ يحتاج ذلك إلى فترة زمنية تطول أو تقصر بحسب وضع كل إقليم .

٦- كان عدد العرب فى الشمال الإفريقى كله قليلا طوال هذا القرن ، وممثلا غالبا فى آلاف قليلة من المحاربين ورجال الإدارة والدين . فى حين أن عدد البربر كان يقدر بعدة ملايين ، والمسيحيين بنحو ٣٠٠ ألف واليهود بنحو ١٠٠ ألف[٣] .

---

(١) دبوز ١١٢/٢ - ١٢٠ ، وانظر ولاة طرابلس ص ٣٠ والمنهل العذب ٥٢/١ .

(٢) انظر القسم الأول من الكتاب .

(٣) A Historyof the Colonization of Africa ص ٦١ .

وبالإضافة إلى هذا القلة العددية ، كان هم هؤلاء العرب محصورا فى المحافظة على الأمن وتثبيت دعائم الدولة الإسلامية . وكانت لديهم أوامر مشددة ألا يستكينوا إلى الراحة ، وبأن يظلوا فى وضع استعداد دائم ، أو على حد تعبير عمرو بن العاص لجيوش العرب فى مصر بأن يظلوا «فى رباط إلى يوم القيامة» . وكان من تعليمات الخليفة عمر بن الخطاب العامة إلى أمراء الأجناد ألا يسمحوا لجنودهم بالزرع[١] . لأن ذلك يعنى الاستقرار والاستيطان ، وهو مالا يتلاءم مع مرحلة الفتح الأولى . وإذا كان من العرب من وفدوا لا بوصفهم جندا عاملين ، فلابد أنهم كانوا قلة ، وأنهم تفرقوا فى أنحاء البلاد فلم يظهر لهم أثر .

٧- ويجب أن نذكر اسم عمر بن عبدالعزيز هنا مرة أخرى لأنه كان أول من ألغى ضريبة الرءوس على غير المسلمين إذا اعتنقوا الإسلام ، وعمم ذلك فى كل الأقطار الإسلامية المفتوحة .

ولاشك أن هذه السياسة قد أغرت غير المسلمين بالدخول فى الإسلام ، وبخاصة من غير ملاك الأراضى الذين كان إسلامهم يعنى إعفاءهم من أى ضريبة خاصة . ولكن لانتوقع أن يظهر أثر هذا العامل أيضا فى هذه المرحلة .

٨- وأخيرا نذكر القارىء بالحقائق الآتية التى سبق أن ذكرناها فى فصل «انتشار الإسلام فى المنطقة» وهى :

(أ) قول صاحب المونس : وعلى رأس المائة الأولى دانت إفريقية للعرب من برقة إلى السوس ، ولم تقم بعدها للنصارى والبربر قائمة[٢] .

---

(١) انظر القسم الأول من الكتاب .

(٢) لم يمنع ذلك وقوع كثير من الثورات والانقلابات المضادة بعد المائة الأولى ، مثل واقعة القرن قرب القيروان عام ١٢٤ . وفى أيام الحكم العباسى لطرابلس (١٣٤ - ١٨٤) ثار عبدالجبار ابن قيس =

(ب) ما عرف به موسى بن نصير من اهتمام بتعليم البربر القرآن وعلوم الدين .

(جـ) إرسال الفقهاء العشرة عام ١٠٠ هـ إلى بلاد المغرب .

وتنتهى هذه الفترة بتثبيت دعائم الإسلام ، ولكن بدون أن يتم تثبيت دعائم اللغة العربية ، وذلك نظرا لتضارب العوامل الفعالة فى هذا القرن ، ولنشأة بعضها قرب نهايته مما لم يسمح بفاعليته أو ظهور أثره ، ولذا اعتبرناه قرن ازدواج لغوى تعايشت فيه اللغتان جنبا إلى جنب دون أن تقوى إحداهما على قهر الأخرى أو زحزحتها من مكانها . ولا نظن أن اللغة العربية – وإن استطاعت أن تثبت وجودها فى مجال الدواوين والمكاتبات الرسمية – قد استطاعت أن تثبت وجودها فى مجالى اللغة الأدبية أو لغة الحياة وهما المحك الأساسى لهذا الصراع . ولا أدل على عجز اللغة العربية عن الانتصار – حتى فى المجال الرسمى – خلال هذه الفترة مما فعله حسان بن النعمان حين أراد سك النقود العربية لبلاد المغرب إذ اتخذ نفس الدينار القرطاجنى مع حذف الصليب . ووضع صورتى عبدالملك بن مروان ، والوليد ابنه بدلا من قيصر البيزنطيين وولى عهده . وأبقى كتابته **باللغة اللاتينية** ، وبعد حين زاد حسان فى دينار **كتابة لاتينية** ترجمتها فى أحد الوجهين : باسم الله الرحمن الإله الأوحد ، وفى وجهها الآخر : وحده لاشريك ولا مثيل له . وبعدها **باللاتينية** : ضرب بإفريقية فى العشرة الثالثة يساوى ٨٥ هجرية[1] .

= على حميد بن عبدالله العكى وتمكن من الاستيلاء على طرابلس ثم ثار البربر برياسة عبدالأعلى بن عبدالرحمن بن السمح واحتلوا طرابلس سنة ١٤٠ وتوسعوا حتى احتلوا القيروان كذلك . وفى سنة ١٥٣ ثار على الجنيد بن بشار الأسدى برابرة طرابلس الذين استولوا عليها ثم على القيروان عام ١٥٤ هـ (انظر : ولاة طرابلس ص ٣٨ و ٤٣ وما بعدها) .

(١) دبوز ١١٩/٢ .

المرحلة الثانية : مرحلة اختلال ميزان القوى فى صالح اللغة العربية :

يمكن – فى رأينا – اعتبار هذه المرحلة ممتدة لتغطى القرون الثلاثة التالية من الهجرة وهى القرون من الثانى إلى الرابع الهجرى .

ولم تجد فى هذه الفترة عوامل جديدة فى صالح اللغة العربية ، وإنما كانت فرصة للعوامل القديمة لتؤتى ثمارها . بل يمكن القول بأن ما جد من عوامل فى هذه الفترة كان من النوع المضاد الذى عاق اللغة العربية عن اتخاذها لغة الحياة فى كافة أنحاء البلاد . فبالنسبة للعوامل المساعدة نجد ما يأتى :

١- ازدياد حركة التعريب للدولة ، وقصر الوظائف العامة على العرب أو المسلمين . وقد أدى هذا بالسكان إلى أن يسرعوا فى تعلم اللغة العربية لتفتح أمامهم فرص العمل ، أو ليحتفظوا بما فى أيديهم من وظائف . ولم تؤد حركة التعريب إلى تذمر أو احتجاج من البربر كما كان الحال فى مصر إذ كان التعريب انتقالا من لغة غير بربرية إلى لغة أخرى غير بربرية . وليس هذا فحسب ، بل إن بعض البربر لم يقنع بالإسلام ويتعلمه اللغة العربية فقط ، بل أراد أن يذهب خطوة أبعد فى التعريب ، فادعى لنفس نسبا فى إحدى القبائل العربية كما سبق أن بينا .

٢- ازدياد عدد الداخلين فى الإسلام فرادى وجماعات لأسباب متعددة منها :-

(أ) قوة الحركة الدينية فى البلاد ونشاط الدراسات الإسلامية بمختلف فروعها والتوسع فى بناء المدارس والمساجد .

(ب) تفهم الكثيرين روح الإسلام ، ووقوفهم على بساطته وديمقراطيته ومساواته بين البشر جميعا ، فى حين كانوا يحسون بالقلق والألم فى

ظل المسيحية . وقد كتب بتلر فى هذا الموضوع فقال : «وأما الحقيقة المرة ، فهى أن كثيرين من أهل الرأى والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها ، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء فى الله ... ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته»[١] .

(جـ) الجهود الجبارة التى بذلتها كل من الدولتين الرستمية والأغلبية –[٢] كل فى مناطق نفوذه – فى خدمة اللغة والحضارة الإسلامية بالمغرب ، بالإضافة إلى جهود بعض الولاة الخلصين مثل يزيد بن حاتم الذى دامت ولايته من ١٥٥ إلى ١٧١ ، وقد عرف عنه تنشيطه للتعليم ، واحترامه للعلماء . وكان أغلب عهده عهد استقرار ، فأقبلت إفريقية والمغرب الأدنى على العلم فكثرت المدارس الابتدائية فى كل القرى والمدن، وصارت المساجد مراكز للتخصص فى الشريعة الإسلامية والعلوم العربية وغيرها . وكان يرابط فيها عشرات من العلماء يلقون دروسهم فيها[٣] .

---

(١) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول ص ١٥٣ .

(٢) يقول جوستاف لوبون عن دولة الأغالبة : «وكان هم الأغالبة مزج العرب بالبربر فتمتعت إفريقية فى عهدهم بطمأنينة عظيمة» (ص ٢٥٥ ، ٢٥٦) ويعتبر حسن سليمان محمود أن من أهم أعمال الأغالبة «مصاهرة العرب للبربر واختلاط دم هذين الشعبين» (ليبيا بين الماضى والحاضر ص ١٣٥) .

(٣) انظر دبوز ٢/٩٠ ، ٩١ ، ١٣١ ، ٣٦٩ وما بعدها .

٣- ازدياد عدد العرب فى البلاد شيئا فشيئا لكن دون أن يستطيعوا - كما يقول إحسان عباس - أن يصهروا العناصر الأصلية[١] . ونحن وإن كنا لانملك أسماء محددة للقبائل التى هاجرت واستوطنت المنطقة فى هذه الفترة بالذات، فإننا يمكننا أن نتصور تتابع الهجرات العربية ، نظرا لارتباطها بالحكام ، وحرص كل حاكم - إذا كان عربيا - على أن يكثر من بنى جلدته ، وأفراد قبيلته ، على عادة الولاة فى ذلك الوقت[٢] . هذا بالإضافة إلى السياسة التى سار عليها الحكام بعد تتابع ثورات البربر ، وتسبيبهم للقلاقل والاضطرابات، والتى تتلخص فى الإكثار من العرب المستوطنين ما أمكن حتى يكونوا عامل توازن فى المنطقة . ويمثل هذه السياسة قول هشام بن عبدالملك بعد تعدد ثورات البربر فى عهده ، وتدويخهم جيوشه : «والله لأغضبن للعرب غضبة مضرية . ولأبعثن إليهم جيشا أوله عندهم وآخره عندى ، ثم لاتركت حصن بربرى إلا جعلت إلى جانبه **خيمة قيسى أو يمني**»[٣] .

٤- ازدهار مدينة القيروان بعد إقامتها على أسس إسلامية بحتة . وقد كان النظام الإدارى معرّبا بها منذ اللحظة الأولى لإنشائها، ولم يعرف فترة الانتقال التى

---

(١) ، (٢) يعطينا الأستاذ إحسان عباس معلومات تقريبية عن بعض هذه القبائل فيقول : جاء الفتح والهجرات التالية بمستوطنين من العرب وغيرهم ، فغلب على مدينة برقة وأرباضها سكنى الجنود ، كما استوطنتها أعداد كبيرة من قبيلة قرة العربية . ولعل ذلك قد تم فى أوائل القرن الرابع . وسكن جماعة من القبائل اليمنية المهاجرة من الأزد ولخم وجذام والصدف وغيرهم جبل برقة الشرقى . أما جبل برقة الغربى فاستوطنته جماعة من غسان والأزد وتجيب ... ونزلت قبائل عربية أخرى من بنى مدجل وبلى وجهينة فى جهات الرمادة . ونزل ودان قسمان من العرب سهميون وحضرميون . ثم يعلق على ذلك بقوله : «لانعرف نسبة عددية لهؤلاء العرب ، ولكن يبدو أنهم حتى منتصف القرن الرابع الهجرى لم يستطيعوا أن يصهروا العناصر الأصلية» (تاريخ ليبيا ص ٩٢ ، ٩٣) . وانظر سكان ليبيا عند اليعقوبى ص ٢٢٩ .

(٣) دبوز ٢٦٤/٢ نقلا عن نهاية الأرب للنويرى .

عرفتها العواصم الأخرى . ولو اتخذ العرب الفاتحون مدية قرطاجنة مثلا عاصمة لهم لمرت إفريقية بنفس التجربة التى مرت بها الإسكندرية أو قرطبة فى هذا الميدان[١] .

ولكن كانت هناك عوامل مضادة برزت خلال هذه الفترة وأهمها :

١- قوة الشعور القومى عند البربر وإثارة العصبيات فيهم كرد فعل لما لحقهم من ظلم وسوء معاملة على أيدى بعض الحكام الجائرين . ونضرب لهذا على سبيل المثال اسم الوالى يزيد بن دينار (١٠٢ هـ) الذى فرض الجزية حتى على من أسلم من البربر ، وادعى أن بلادهم فتحت عنوة لا صلحا[٢] . وكذلك عمر بن عبيدالله المرادى عام ابن الحبحاب (١٢٢ هـ) على شمال المغرب الأقصى الذى أراد أن يخمس أموال البربر كما يفعل بأموال المشركين زاعما أن البربر وأموالهم غنيمة للأمويين[٣] . ولهذا حاول البربر منذ العشرينيات من القرن الثانى الهجرى أن يقيموا لهم دولة فى الشمال الإفريقى ، ولم تكلل محاولاتهم بالنجاح إلى بعد إعلان الدولة الرستمية التى استمرت فى المغرب الأوسط من عام ١٤٤ - ٢٩٦ هـ ، وكان نفوذها يمتد فيشمل ما عدا الجزء الساحلى من طرابلس[٤] . وعلى الرغم من أن اللغة الرسمية لهذه الدولة كانت

---

(١) القيروان ص ١٤١ .

(٢) دبوز ٢٠١/٢ .

(٣) المرجع ٢/ ٢٣٥ .

(٤) امتد نفوذ الدولة الرستمية حتى شمل طرابلس كلها من خليج سرت إلى قابس غربا (ماعدا مدينة طرابلس والبحر فقد خرجا عنها إلى الدولة الأغلبية) ومن البحر إلى الصحراء الكبرى . (انظر دبوز ٥١٥/٣ ، ٥١٦) . وهناك خريطة للدولة تجدها فى مقابل ص ٦٥٦ من المرجع السابق . وقد سبق =

هى اللغة العربية فقد كانت تحتضن اللغة البربرية وتحاول ترقيتها بشتى الوسائل . وقد كان للرستميين مترجمون ينقلون الكتب من العربية إلى البربرية لتأخذ النواحى التى لاتحسن العربية كالبربر المنقطعين فى رءوس الجبال حظها من العلم[١] . كذلك يروى عن أبى سهل الفارسى[٢] مترجم الدولة الرستمية أنه دون اثنى عشر كتابا وعظا وتذكيرا وتخويفا باللغة البربرية . ويبدو أنه لم يكتب شيئا من ذلك باللغة العربية ، إذ يقول الدرجينى عنه : «وجميع ما حفظ من ذلك فإنما هو بلسان البربر» . ومما ألف بالبربرية كذلك «عقيدة نفوسة» . ويقول أبو إسحاق اطفيش : «وقد عنى الأباضية بالتأليف بالبربرية منذ ظهروا بين البربر فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، وكانت هذه من أسباب تمكين البربر فى الإسلام»[٣] .

ويبدو أن هذه الحركة نحو التمسك بالبربرية قومية ولغة قد أزعجت الكثيرين حتى من بين البربر أنفسهم . فيروى عن أبى عمران موسى بن زكرياء أحد العلماء السبعة الذين ألفوا ديوان الأشياخ أنه كان يقول : «إن تعلم حرف من العربية كتعلم ثمانين مسألة من الفروع[٤] .

= قيام الدولة الرستمية معارك طاحنة مثل تلك التى دارت بين حنظلة بن صفوان الكلبى وعكاشة بن أيوب (من برابرة هوارة) وكان معه جيش من البربر يقدر بثلاثمائة ألف . وكانت هذه المعركة من أكبر المعارك التى وقعت فى إفريقية بين العرب والبربر ، وكانت سنة ١٢٤ هـ واشتهرت بواقعة القرن، وهو مكان خارج القيروان (ولاة طرابلس ص ٣٨) .

(١) دبوز ٤٠٥/٣ .

(٢) قال الشماخى : غلبت عليه العزوة الفارسية وليس بفارسى وإنما هو نفوسى (ص ٢٨٩) .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية – مادة بربر هامش رقم ١ ص ٥١٨ ، ٥١٩ .

(٤) دبوز ٣٩٧/٣ .

٢- وجود مناطق جبلية ، وقرى نائية كان يصعب الوصول إليها ، وتشق إقامة العرب فيها ، مما أحيا العصبية البربرية وأبقى اللغة البربرية فيها [١] . وكان الذين لايستطيعون الكتابة بالعربية فى هذه المناطق يرفعون شكاويهم إلى الإمام مكتوبة بالبربرية [٢] .

وبانتهاء هذه القرون الثلاثة نتصور أن يكون الوضع اللغوى للمنطقة قد أصبح كما يلى :

١- جميع الرسائل والمكاتبات الرسمية والدواوين والسجلات تكتب باللغة العربية فيما عدا الشكاوى أو الوثائق التى يحررها من لايعرفون العربية من سكان المناطق النائية .

٢- اتخاذ اللغة العربية لغة تأليف وثقافة فى جميع أنحاء البلاد ، وعلى أيدى مؤلفين من البربر ، مثل «نوازل نفوسة» للإمام عبدالوهاب ، وتفسير الشيخ هود بن محكم الهوارى بعد الدولة الرستمية بزمن قليل ، وكلاهما باللغة العربية الفصيحة [٣] . ونستطيع أن نزعم أنه بانتهاء هذه الفترة لم يكن يوجد فى البلاد مثقف واحد لايعرف اللغة العربية . وإذا كان بعضهم قد كتب باللغة البربرية فليس لجهله بالعربية ، ولكن إما ليظهر مقدرته على الكتابة باللغة البربرية ، وإما لأنه يكتب وفى ذهنه خدمة العوام من الناس ، أو سكان

---

(١) كان جبل نفوسة مثلا مستقلا عن طرابلس وكان كثيرا ما يثور حاكم جبل نفوسة على حاكم طرابلس لإلحاق طرابلس بجبل نفوسة كما حدث فى عهد سفيان بن أبى المهاجر والى طرابلس من جهة الأغالبة الذى ثار عليه حاكم جبل نفوسة أبو منصور عام ١٩٦ وغزا مدينة طرابلس وخربها وهدم أسوارها (ولاة طرابلس ص ٢٦) .

(٢) دبوز ٤١٧/٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٤١٠ .

المناطق النائية الذين لم تتيسر لهم سبل التعلم للغة العربية . ويقول الأستاذ شيت خطاب : «كان إقبال البربر على اللغة العربية شديدا ، يدل على ذلك ماترويه كتب الطبقات من رحيل الكثيرين منهم فى القرن الثانى الهجرى إلى المشرق للاستزادة من العلم والتثبت من اللغة . وقد ظهرت خلال هذا القرن فئات تكتب بالعربية وتؤلف بها . وبدراسة ما ورد من تراجم فى كتب طبقات فقهاء المغرب نجد الرواية تتسلسل إلى رعيل أول من أهل البلاد الأصليين الذى برعوا فى ثقافة العرب وفهموها فأحسنوا الفهم»[١] .

٣- اتخاذ اللغة العربية لغة تخاطب فى جميع أنحاد المغرب ما عدا سكان الجبال أو المناطق النائية ، فقد ظل بعضهم يتكلمون اللغة البربرية وحدها وصار بعض آخر مزدوجى اللغة . ولعل فى تمييز اليعقوبى لأهل نفوسة بأنهم عجم اللسان ما يشير إلى أن سائر مناطق المغرب حتى أواخر القرن الثالث الهجرى كانت قد تعربت تعربا كاملا أو شبه كامل من حيث اللغة[٢] .

المرحلة الثالثة : مرحلة الاستقرار :

تشمل هذه المرحلة القرنين الخامس والسادس . وأهم ما يميزها الهجرتان العربيتان اللتان تمت إحداهما فى القرن الخامس والأخرى فى القرن السادس . وبتمامهما تم تعريب البلاد نهائيا ، وظهرت الغلبة للعنصر العربى ، وحدثت المصاهرة الكاملة والامتزاج التام بين البربر والعرب فى معظم أنحاء البلاد ، واختفت اللغة البربرية إلا من بعض الأماكن .

---

(١) قادة فتح المغرب ٢/١٧٣ .

(٢) إحسان عباس : تاريخ ليبيا ص ٩٤ .

وميزة هاتين الهجرتين عما سبقهما من هجرات أنهما تمتا بطريق القصد والعمد ، وهدفتا إلى الاستقرار والاستيطان ، وشملتا أعدادا كبيرة من العرب لم يسبق لمثلها أن دخلت البلاد .

أما الهجرة الأولى فقد تمت قبيل منتصف القرن الخامس الهجرى ، وكان بطلاها قبيلتى سليم وهلال ، وانضمت إليهما أشتات من قبائل أخرى . وقصة هذه الهجرة وما لابسها وسبقها وتلاها من أحداث قصة طويلة لايتسع المجال للإحاطة بها ، كما أن ذلك ليس من هدفنا هنا . ولكن فى اختصار شديد نقول إن المعز بن باديس الصنهاجى [١] أعلن عداءه الصريح للفاطميين واضطهد معتنقى مذهبهم وأعمل فيهم القتل والتشريد ، ثم ختم تصرفاته هذه عام ٤٤٣ بقطع الخطبة لهم ، وبالدعاء للقائم بأمر الله العباسى ، وحمل الناس فى المغرب على مذهب الإمام مالك بن أنس . وفى نفس السنة التى قطع فيها المعز الخطبة للفاطميين بعث إليه أمير برقة جبارة بن مختار العربى بطاعته وبيعته ، وأخبره أنه هو وأهل برقة قد نكثوا كذلك عهود بنى عبيد ، وأحرقوا بنودهم ورياتهم ، والمنابر التى كان يدعى عليها لهم ، وتبرؤوا منهم ، وسبوهم ، ولعنوهم على منابرهم ، ودعوا للقائم بأمر الله العباسى [٢] . وحركت هذه الأحداث نفس المستنصر للانتقام

---

(١) من نسل الأمير بلكين بن زيرى أول حاكم صنهاجى للمغرب من طرف الدولة العبيدية . وقد اختاره المعز لدين الله الفاطمى عام ٣٦٢ هـ ، واستمر انضواء هذه الأسرة تحت لواء الفاطميين حتى جاء المعز بن باديس (٤٠٦ - ٤٥٣) . انظر «قبائل العرب فى ليبيا» ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) تفصيلات هذه الحوادث فى أماكن متفرقة من : «قبائل العرب فى ليبيا» و «رحلة التجانى» و «ابن خلدون» و «جوستاف لوبون» وغيرها من كتب الحضارة والتاريخ .

فأشار عليه أحد وزرائه [١] . باصطناع بنى سليم وبنى هلال ، وتسريحهم إلى المغرب ، وتوليتهم أعمال إفريقية واستعدائهم على صنهاجة لمحاربتها . وكانت هذه القبائل تقطن الصعيد والفيوم والبحيرة ، وقد أقضت مضاجع المستنصر لكثرة ما كانت تسببه من قلاقل واضطرابات . واستجاب المستنصر للفكرة التى ستصيب هدفين بحجر واحد ، وأرسل وزيره للتفاوض معهم . ونترك ابن خلدون يكمل القصة بقوله : بعث المستنصر وزيره على هؤلاء الأحياء ... وأرضخ لأمرائهم فى العطاء ، ووصل عامتهم بعيرا ودينارا لكل واحد منهم ، وأباح لهم إجازة النيل ، وقال لهم : قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجى العبد الآبق . وكتب اليازورى (الوزير) إلى المغرب : «أما بعد . فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضى الله أمرا كان مفعولا» . فطمعت العرب إذ ذاك وأجازوا النيل إلى برقة ، وافتتحوا أمصارها . واستباحوها ، وكتبوا لإخوانهم شرقى النيل يرغبونهم فى البلاد ، فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا لكل رأس دينارين فأخذ منهم (يعنى المستنصر) أضعاف ما أخذوه [٢] . وتقارعوا على البلاد فحصل لسليم الشرق ولهلال الغرب .. وسارت بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر حتى وصلوا إفريقية سنة ٤٤٣ [٣] . ودارت معارك طاحنة حول القيروان وفى داخل

---

(١) يقول التجانى : الجرجرائى الأقطع هو الذى أمكن العرب من الدخول إلى هذه البلاد ... ومن الناس من نسب هذه الإجازة لغيره لأن موته سبق جواز العرب بأعوام . وذكر هؤلاء أن المجيز لهم هو اليازورى الحسن بن على ، وقد تولى الوزارة بعد الجرجرائى . ولا يبعد أن يكون هذا هو الصحيح (ص ١٦ ، ٢١ ، ٢٢) .

(٢) يعنى أن المستنصر أعطى إخوانهم السابقين كل واحد دينارا ، وفى هذه المرة أخذ من كل واحد دينارين .

(٣) مقتبس فى : ليبيا فى كتب التاريخ والسير ص ١١٩

القيروان – عاصمة المعز بن باديس – وانتهبت هذه المدينة ، وصارت أثرا بعد عين، وتفرق أهلها فى الآفاق ، وانتقل المعز مع أهله إلى المهدية ، وعاش بها كئيبا بقية حياته حتى مات سنة ٤٥٣ هـ[١] .

وهناك تفصيلات أخرى تهمنا فى هذا المقام لأنها مرتبطة بحركة التعريب وتوطين القبائل العربية وهى :

١- يقدر بعض المؤرخين عدد المهجرين فى هذه الموجة بما يتراوح بين ٢٠٠ ألف و ٤٠٠ ألف[٢] ، وبعضهم يرتفع بالرقم حتى المليون . ويوفق جوستاف لوبون بين هذه الآراء المتعارضة بقوله : «والذى أراه أن الغارة الأولى تبعتها غارات أخرى»[٣] .

٢- بعد هجرة بنى سليم وهلال واستقرارهم فى المغرب تبعتهم هجرات أخرى جاءت بطوائف كثيرة من الناس .

٣- لم يؤسس العرب ملكا ولا دولة ، وآثروا الضواحى والأرباض على الأمصار[٤].

٤- استيطان هذه القبائل فى إقليم برقة كان سهلا ، لأن المعز لدين الله كان قد سبق وأباد «زناتة» . ولذلك حينما جاء العرب إليها ، وجدوا بلادا كثيرة المرعى خالية من الأهل[٥] .

---

(١) قبائل العرب فى ليبيا ص ٦٥و ص ٧٨ – ٨٦ .

(٢) ملامح المغرب العربى ص ٦٣ و .A History of the Colonization of Africa ص ٦١.

(٣) حضارة العرب ص ٢٥٧ .

(٤) لهجة شمال المغرب ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٥) التذكار ص ٢٩ .

٥- كذلك من المرجح أن يكون بعض من بنى هلال قد جاز النهر ودخل ليبيا مع أحد الجيوش التأديبية التى أرسلت قبل الغزو الهلالى لأن المراجع التاريخية تتحدث عن وجود هلالى فى وقت مبكر [١] .

٦- بعد حلول القبائل العربية هاجرت بنو قرة ثم بطون من كعب إلى مناطق أخرى ، وغلبت على أنحاء برقة بنو سليم [٢] . ولعل هؤلاء المهاجرين هم الذين قال عنهم ابن عذارى : فى عام ٤٦٨ وصلت إلى إفريقية مجموعة أخرى من عرب برقة ونزلت حول القيروان [٣] .

٧- اقتسم بنو هلال بلاد المغرب فاستولت زغبة على طرابلس ، واستولت رياح على باجة ، ثم اقتسموها ثانية ، فكان لرياح وزغبة والمعقل وجشم وقرة والأثبج والخلط وسفيان من تونس إلى المغرب ، وتخلت زغبة عن طرابلس ... وكان بنو قرة بالجبل الأخضر قبل مجيء هلال وسليم فتركوه مشاركين أبناء عمومتهم فى الاندفاع والغزو .

٨- أما بنو سليم فكان انتشارهم فى المغرب على النحو التالى :

(أ) أقامت هيب وأحلافها رواحة وناصرة وغمرة ببرقة .

(ب) انتشرت قبائل دباب وعوف وزغب فى جهات طرابلس ، واستوطنت فيما بين قابس ونفوسة وما بينهما من الضواحى والجبال .

(جـ) هناك جماعة من دباب توغلت فى القفر كآل سليمان الذين اتجهوا نحو فزان وودان

---

(١) عباس همدانى فى : Some Aspects of the History of Libya ص ٣٣٩ .

(٢) تاريخ ليبيا لإحسان عباس ص ١٥٧ .

(٣) البيان المغرب ، مقتبس فى إحسان عباس : ليبيا فى كتب التاريخ والسير ص ١٠٢ .

(د) نزل آل سالم مصراته [١] .

أما النتائج التى ترتبت على هذه الهجرة فيختلف المؤرخون - بعد اتفاقهم على دورها الذى لاينكر فى تعريب البلاد - يختلف المؤرخون فى تقديرها والحكم عليها . فيعتبرها بعضهم كارثة من الناحية الحضارية ، ويعتبرها بعضهم نافذة فتحت أعين البلاد على الحضارة الأجنبية . ويعتبرها بعضهم سببا فى تدمير البلاد ، والإتيان على ما فيها من أخضر ويابس ، ويعتبر بعض آخر دمار البلاد سابقا على هجرة بنى هلال وسليم ، ويقلل من تقدير الدمار الذى لحق البلاد على أيديهم ، ويلتمس العذر لما قد يكونون قد سببوه من خراب .

فنجد - على سبيل المثال - الأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب يعزو ضياع كثير من الكتب والمؤلفات ومظاهر الحضارة إلى «الكارثة العظيمة المؤلة ، وهى زحفة بنى هلال وبنى سليم فى آخر عهد المعز بن باديس سنة ٤٤٩ هـ» [٢] ونجد الأستاذ إحسان عباس يرتب على هجرة هذه القبائل «نتائج خطيرة فى منطقة ليبيا ، فهم المسئولون عن خراب العمران وعن تعطل الزراعة . وكان كثير من هؤلاء الأعراب خطرا على الحجاج والتجار والرحالين حتى أضحت البلاد كما قال العبدرى لايسلكها إلى المخاطر . وبذلك حرمت ليبيا من حركة علمية كانت تعتمد على مرور العلماء بليبيا» [٣] . ويضع جوستاف لوبون الأمر فى صورة مخففة

---

(١) قبائل العرب فى ليبيا ص ٦٦ - ٦٨ .

(٢) ورقات ٣٤٩/١ . وهناك رأى يقول إن الغزو الهلالى قد توقف فى الإقليم الليبى الحالى وتعثرت خطواته إلى عام ٤٥٥ (أى إبى ما بعد وفاة المعز بن باديس) . ويعتمد هذا الرأى على وثيقة هامة وردت فى كتاب «السجلات المستنصرية» نشر الدكتور ماجد بالقاهرة سنة ١٩٥٣ . (الرباطات الساحلية لشميرة ص ٢٣٩) .

(٣) تاريخ ليبيا ص ١٥١ .

فيقول : لم تؤد هذه الغارات إلى نتائج عمرانية ، بل على العكس حافظ أعراب جزيرة العرب على جلفهم الذى هو نقيض كل ثقافة جدية ، فأخذت تلك الحضارة التى كادت تلمع تنوى بسرعة»[١] . ولكن على العكس من ذلك تماما يظن Grievus «أن آثار الغزوة الهلالية كان قدوم العرب وقد حملوا كثيرا من المزايا الثقافية إلى المغرب ، إذ أحضروا معهم العلم والنظرة العريضة التى اكتسبوها من الثقافة الهيلينية التى عرفوها ... وهى التى صارت بعد ذلك برعما للثقافة الإسلامية الغنية فى الأندلس»[٢] .

والحق الذى لايصح إنكاره أن هناك شيئا من الدمار قد لحق البلاد على أيدى بنى هلال وسليم ، ولكن يجب ألا ننسى الحقائق الآتية التى تعزو كثيرا من الدمار إلى غيرهم مثل :

١- الخراب المريع الذى لحق البلاد على أيدى الكاهنة وأعوانها فى القرن الأول من الهجرة ، وقد سبق الحديث عنهم .

٢- ما هو ثابت من أن منطقة برقة كانت - حين وفد هؤلاء العرب إليها - شبه مهجورة وخالية من الأهلين ، لأن أصحابها من زناتة حاربوا المعز لدين الله الفاطمى ففتك بهم وأوشك أن يبيدهم ويفنيهم عن آخرهم[٣] .

٣- ما هو ثابت تاريخيا من أن المعز بن باديس نفسه قد ساهم فى خراب البلاد ، إذ أصدر أوامره «بانتهاب المزروعات والثمار المحيطة بالقيروان والمنصورية ليحرم الهلاليين منها . وسر الناس بذلك حاسبين أنها ستؤول إليها ، ولكن

---

(١) حضارة العرب ص ٢٥٧ .

(٢) الممالك الإسلامية فى غرب إفريقية ص ٨٢ .

(٣) قبائل العرب فى ليبيا ص ٦٥ .

المعز كدسها ففسدت وأكلتها البهائم»[١] . وفعل المعز نحو ذلك فى مدينة «صبرة» إذ اقتلع رجال صنهاجة وعبيد المعز خشب الحوانيت وسقائفها فخربت عمارة هذه المدينة[٢] .

٤- تعاقب الفتن والمحن والحروب والثورات على المنطقة . وفى ذلك يقول الأستاذ حسن حسنى عبدالوهاب : «الحقيقة التى لايطرقها شك ... أن العرب لما قدموا فاتحين لم يجدوا فى البلاد سوى خرائب متهدمة تعلوها مسحة من زخرف قديم أبلاه الدهر وغير نضارته الزمان لتعاقب الفتن وتوالى المحن . ولم يصيبوا غير مدائن متداعية البنيان ، نزرة السكان ، ضعيفة الإيراد ... ولهذا السبب لم يفكر العرب فى نصب مركزهم الذى عزموا على إيجاده فى البلاد المفتوحة على أنقاض إحدى تلك المدائن البالية ... ولو أن فى البلاد عاصمة قديمة تناسب الفاتحين لما ارتادوا سواها ، كما فعلوا فى الشام وطليطلة ثم قرطبة بالأندلس»[٣] .

٥- وإذا كان عرب بنى هلال وسليم قد تسببوا فى خراب بعض الجهات ، فقد كان ذلك نتيجة المقاومة التى لاقوها من أتباع المعز بن باديس ، والاقتتال العنيف الذى دار بين الطرفين ، وحاول كل طرف فيه أن يستخدم كل الأسلحة الإنسانية وغير الإنسانية فى سبيل القضاء على خصمه . فمسئولية الدمار تعود إلى كلا الطرفين على السواء ، وترجع أولا وأخيرا إلى الحرب التى دارت رحاها لعدة سنوات .

---

(١) المرجع ص ٨١ .

(٢) المرجع والصفحة .

(٣) ورقات ١/٤١ ، ٤٢ .

ومما يدل على انتفاء الصفة التخريبية عن هؤلاء الأعراب أننا نجدهم بعد وقف القتال وتوطنهم فى البلاد - نجدهم قوما مستقرين ميالين للدعة والسكينة ، مشتغلين بالتعمير والزراعة ، محبين للعلم والحضارة . فهذا ابن خلدون يقول عن قبيلة العزة التى نزلت بالجهة الشرقية من ليبيا : «وركاب الحج من المغرب يحمدون مسالمتهم فى ممرهم ، وحسن نيتهم فى التجافى عن حاج بيت الله ، وإرفادهم بجلب الأقوات لسريهم وحسن الظن بهم»[١] . وهذا أبو عبيد البكرى (المتوفى سنة ٤٨٧ هـ) يتحدث عن ليبيا فيصف مدينة برقة بأنها دائمة الرخاء كثيرة الخير ، وأكثر ذبائح أهل مصر منها . وهى كثيرة الثمار والفاكهة» . ويصف أجدابية بأنها «مدينة كبيرة فى الصحراء ، ذات بساتين لطاف وأسواق حافلة مقصودة» ، ومدينة سرت بأنها «مدينة كبيرة على سيف البحر ... لها نخل وبساتين وآبار عذبة ولحمانها عذبة طيبة» . ويصف طرابلس بأنها «ذات أسواق حافلة جامعة ، وحمامات كثيرة فاضلة ، كثيرة الثمار والخيرات»[٢] . فهى صورة تختلف تماما عن الصورة القاتمة السوداء التى ألصقت ببنى هلال وسليم . وليس هذا فحسب ، فلدينا شهادة شاهد عيان زار البلاد فى القرن الثامن الهجرى وهو التجانى ، وقد كتب فى رحلته مشاهداته وملاحظاته ، ومن بينها ما رآه من عمران وغرس وزراع ، وما شاهد من زوايا فيها كتب كثيرة محبسة ، وبها أماكن لضيافة الزوار وتقديم الطعام لهم[٣] .

ومهما يكن من شىء ، فهناك إجماع تام على أن استيطان هؤلاء الأعراب فى بلاد المغرب ، وانتشارهم فى الأرض ، ومخالطتهم للبربر ، وامتزاجهم

---

(١) قبائل العرب فى ليبيا ص ٩٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(١) التجانى ص ٢١٣ ، وإحسان عباس : تاريخ ليبيا ص ١٥٣ ، وقبائل العرب فى ليبيا ص ٩٧ وما بعدها .

بالسكان ، وتزاوجهم معهم ، كل أولئك قد أدى إلى نجاح عملية التعريب ، وإلى اندماج العنصر البربرى فى العنصر العربى ، حتى أصبح من العسير فيما بعد تمييز البربرى من العربى ، فقد صار الجميع عربا باللسان ، فيما عدا قلة من البربر «نجحوا فى الاحتفاظ بنقاوة جنسهم لسكناهم المرتفعات»[١] ، وظلوا من أجل انحيازهم إلى الأقاليم الجبلية غير المطروقة متمسكين بلهجاتهم البربرية مكونين مناطق انعزال أو جزرا لغوية[٢] . ويقول جوستاف لوبون مصورا ما حدث بكل دقة «تمت تلك الهجرة ببطء ، وملأ العرب شمالى إفريقية بالتدريج ، فقد جاوز العرب طرابلس الغرب بعد أن مكثوا بها سنتين ، وزحفوا خطوة خطوة ، وولجوا الأودية جماعات على مهل ، واختلطوا بالسكان رويدا رويدا ، وزاد عددهم شيئا فشيئا ، وفرضوا – بفضل كثرتهم – على البربر عاداتهم ودينهم ولغتهم بعد بضعة أجيال . ولم يتركوا لأمراء البربر سوى سلطة وهمية . ولم يتفلت من نفوذهم إلا القبائل التى دحرت إلى الجبال ، وبعض البقاع الجنوبية»[٣] . ويرتب السير جونستون على وفود هذه القبائل نتائج خطيرة إذ يقول : «ولكن فى القرن الحادى عشر الميلادى وفد إلى الشمال الإفريقى هؤلاء العرب الغزاة الذى كانوا المصدر الأساسى للعرب الموجودين فى الشمال الإفريقى ، وبدونهم كان الإسلام سيضعف بمرور الزمن ، وكانت سلسلة من الدويلات البربرية ستنشأ مرة ثانية تحت حكم المسيحيين»[٤] . ويقول الدكتور عبدالقادر أحمد طليمات : إن

---

(١) الممالك الإسلامية فى غرب إفريقيا ص ٨١ .

(٢) تاريخ الشعوب العربية ص ٥٨ ، ٥٩ ، وتقول دائرة المعارف الاسلامية : «امتزج البربر بغيرهم .... ولكن الذين كانوا يعيشون فى الجبال الشاهقة والهضبات المرتفعة على حدود الصحراء لم يتأثروا بغيرهم من الأجناس إلا قليلا» (مادة بربر) .

(٣) حضارة العرب ص ٢٥٧ وانظر كذلك ص ٢٤٧ .

(٤) A History of the Colonization of Africa ص ٦١ .

«الاستعراب الكامل أخذت ملامحه فى ليبيا تظهر بشكل واضح فى عصر الإدريسى (النصف الأول من القرن السادس الهجرى»[١] . ويقول محمد رجب الزائدى : «ولو لم تدخل هلال وسليم المغرب لما تعرّبت قبائله ، ولما تمكن العنصر العربى أن يتفوق فيه على العنصر البربرى ويسود ، ويصبغ البلاد المغربية بطابعه ولونه ، ولكان هناك نقص كبير وخطير فى عروبة المغرب»[٢] . كما يقول : «وانتشار هذه القبائل العربية الصميمة فى طول بلاد المغرب وعرضها كان عاملا حاسما لتعريبها . ثبّت أركان الكيان العربى على سواحلها وفى دواخلها ، وأحاطه بسياج من الحصانة والمناعة ... وبه زال ما كان للبربر من تفوق عنصرى .. لقد ظل العرب الأول الفاتحون نُزرة بجانب أمم من شعوب البربر كثيرة العدد . فكان دخول قبائل هلال وسليم تجديدا للفتح وترسيخا لأصوله وتعميقا لجذوره ... وليس من الغلو اعتباره فتحا ثانيا لأنه حفظ بلاد المغرب من ردة محتملة ... وأكد بقاء المغرب فى الأسرة العربية إلى الأبد»[٣] .

ويقول فى مكان آخر : «لم يكن لعرب الفتح شأن يذكر فى عملية التعريب بل دفعتهم الحاجة إلى تعلم لغة البربر ... ويعود ذلك إلى قلتهم ولزومهم سكنى المدن الساحلية والمعسكرات ، وعدم توغلهم فى الجبال والصحارى والأطراف ... بيد أن قدوم بنى هلال وسليم قلب هذه الأوضاع رأسا على عقب ، وأحدث طفرة كبرى فى تطعيم شعوب المغرب بالعنصر العربى ولغة الضاد ، ونتج عن ذلك أن تعلم البربر العربية وتخاطبوا بها ، واستعملها كثير منهم فى أشغالهم اليومية ...

---

(١) سكان ليبيا عند اليعقوبى ص ٢٢٦ .

(٢) قبائل العرب ٦٣/١ .

(٣) السابق ٦٨/١ .

ولما سادت اللغة العربية سواحل المغرب وداخله أصبحت لغة الكتابة والتخاطب ، وكان انتشارها باهرا إلى حد أن فرنسا وإيطاليا وهما الدولتان اللتان استعمرتا المغرب الكبير لم تظفرا بطائل فى محاولاتهما محو اللغة العربية»[١] .

أما الهجرة الثانية فقد تمت عام ٥٥٠ على يد حميد بن جارية ، حيث نقل إلى تاجورة مجموعة من عرب تميم سكنوا أرض «عبد رب» منذ الفتح الإسلامى ، وكان نقله هؤلاء العرب بقصد إيجاد توازن بين السكان ، لأن الساحل الطرابلسى كان كله مسكونا بالبربر قبل الفتح العربى ، وكانت قبيلة هوارة – وهى من أكبر قبائل البربر – تشغل ما بين تاورغة إلى صبراته[٢] .

وهناك مجموعات أو سلاسل أخرى من الهجرات تمت فى تلك الفترة وقبلها وبعدها . ولكن لعدم تمكننا من ترتيبها ترتيبا تاريخيا اضطررنا إلى تركها . ونكتفى بأن نحيل القارىء إلى معجم البلدان الليبية مواد : برقة – بزرة – ترهونة – الجميل – جندوبة – الحرشا – حومة أولاد نوير – الخلايفة – دحمان – ديلة – الرمادة – زارة – زاوية بو ماضى – زنزور – ساحل الأحامد – الشواشنة – العمروس – فزان – قماطة – الهون – ودان – ورشفانة ، ففيها إشارات كثيرة إلى القبائل العربية التى استوطنت ليبيا ونزلت فى هذه الأماكن .

ويلاحظ أن العرب لم يكتفوا بسكنى الأودية ، والمناطق الواطئة ، بل زاحموا البربر فى مدنهم ، واقتحموا عليهم جبالهم ومعاقلهم وأماكنهم النائية ، مما كان له أكبر الأثر فى تعلميهم اللغة العربية رغم احتفاظهم بلهجاتهم البربرية . والأمثلة على ذلك كثيرة نكتفى منها بالمثالين الآتيين :

---

(١) السابق ١/١١٢ – ١١٥ .

(٢) معجم البلدان الليبية للزاوى ص ٧٦ .

١- قبيلة الزنتان التى سكنت «تاغرمين» الواقعة فى جبل نفوسة . وهذه القبيلة من أكبر القبائل العربية فى طرابلس ، ولها منعة بين القبائل ، ووقعت لها حروب كثيرة بينها وبين البربر . ويرجع الزنتان فى أصولهم العربية إلى قبيلة الدواسر إحدى قبائل نجد الكبرى [١] .

٢- تقع واحات فزان جنوبى طرابلس بنحو ٩٧٠ ك م ، وهى من مواطن البربر القديمة . وقد استوطنها كثيرون من العرب أشهرهم بنو «رياح» و «الحطمان» و «المقارحة» و «ناصرة» [٢] .

ولهذا فنحن نزعم أنه بانتهاء هذه الفترة كانت اللغة العربية قد صارت لغة عامة مشتركة بين سكان المغرب ، وصارت لغة التخاطب فى جميع أنحاء البلاد إما وحدها فى معظم المناطق ، أو مع البربرية فى بعض المدن أو القرى التى تزخر بتجمعات بربرية مثل :

(أ) مدن وقرى نفوسة .

(ب) مدينة زوارة الكبرى ، وهى من مدن طرابلس ، وتقع بقرب الحدود الغربية . ويقول الشيخ الزاوى عنها : «جميع سكانها من البربر ، ويتكلمون اللغة البربرية ، وهم فخذ من قبيلة نفوسة . وهى من الأمكنة القليلة فى طرابلس التى احتفظ فيها البربر بقوميتهم ولغتهم ، ولم يتأثروا بكثرة العرب» [٣] .

---

(١) المرجع ص ٧٨ .

(٢) المرجع ص ٢٥٠ .

(٣) المرجع ص ٩٧ ، ٩٨ ، ١٧٥ . وإذا كان بقاء البربرية حتى الآن فى المناطق الجبلية والصحراوية النائية أمر معقولا ، فإن بقاءها فى مدينة زوارة الساحلية ، وفى واحة أوجلة من أعمال برقة فى حاجة إلى تفسير .

(جـ) واحة أوجلة التى يقول عنها الأستاذ الزاوى : «تقع فى الجنوب الغربى من أجدابية بنحو ٢٦٠ ك م . وهى من أعمال برقة ... وسكانها بربر . وما زالوا يتكلمون اللغة البربرية كما يتكلمون العربية ويكتبونها . وهى البلدة الوحيدة فى برقة التى يتكلم أهلها اللغة البربرية»[١] .

وتقسم دائرة المعارف الإسلامية سكانها إلى ثلاثة أقسام : بنو أوجل وهم من أصل بربرى ، ولغتهم بربرية ، والمجابرة وهم البربر الذى يتكلمون العربية ، والزُّوِيّة وهم قبيلة عربية[٢] .

(د) قرى وادى ميزاب بالجزائر .

(هـ) بعض جهات جبال الأطلس جنوبى مراكش[٣] .

وقد وردت إشارات فى بعض المراجع القديمة عن مناطق يتكلم أهلها لغات غير البربرية . فإما أن هذه المناطق كانت مأهولة بسكان من أجناس مختلفة ، فكونوا جزرا لغوية ، وإما أن إشارات المراجع القديمة لم تكن دقيقة ، وأن لغة هؤلاء الناس ما هى إلا صورة أو أخرى من صور البربرية التى سبق أن قلنا إنها ذات لهجات متعددة متباينة فى بعض الأحيان ، لدرجة يصعب على أبناء إحدى لهجاتها أن يتفاهموا مع أبناء اللهجة الأخرى . ومن تلك الإشارات القديمة ماذكره البكرى عن أهل سرت أنهم يستعملون رطانة ليست بعربية ولا عجمية ولا بربرية

---

(١) المرجع ص ٤٢ ، وانظر علم اللغة لوافى ص ١٨٧ .

(٢) مادة أوجلة .

(٣) قبائل العرب ١/١٥٥ . ويقدر بعض الباحثين الأقلية البربرية التى ما تزال قائمة فى وقتنا هذا بنحو ٣٠٪ من سكان المملكة المغربية وأقل من ٢٠٪ من سكان الجزائر وأقل من ٢٪ من تونس (صور من وحدة الفكر العربى ص ١٧) .

ولا قبطية ولا يحسنها غيرهم[١] ، وما ذكره عن طرابلس من أن حولها أقباطا فى زى البربر كلامهم بالقبطية[٢] .

وأخيرا نشير إلى أن المناطق التى أصبح للعرب فيها أغلبية عددية - قد لفتت أنظار الرحالة والمؤرخين بفصاحة أهلها ، وجودة عربيتهم حتى فى مجالات الحياة العادية . ونشير على سبيل الخصوص إلى إقليم برقة الذى نزلت فيه من وقت مبكر مجموعات من قبائل عربية مختلفة . يقول اليعقوبى : الجبلان المحيطان ببرقة العاصمة أحدهما شرقى والآخر غربى وسكانهما من العرب وحدهم . فالجبل الشرقى سكانه من العرب من الأزد ولخم وجذام وصدف من أهل اليمن . وأما الجبل الغربى فسكانه من عرب غسان وجذام والأزد وتجيب وغيرهم من بطون العرب[٣] . ويقول المقريزى عن سليم : مساكنهم ببرقة مما يلى مصر . وكانت فى عالية نجد بالقرب من خيبر ، ثم تحولوا إلى مصر وإفريقية ، ولم يبق لهم عدد ولا بقية ببلادهم ، وصار لهم بإفريقية عدد عظيم[٤] . وممن أعجب بفصاحتهم فى القديم ، ورآها ظاهرة تستحق التسجيل العبدرى فى رحلته[٥] حيث يقول ما نصه : «وعرب برقة اليوم من أفصح عرب رأيناهم ، وعرب الحجاز أيضا فصحاء . ولكن عرب برقة لم يكثر ورود الناس عليهم ، فلم يختلط كلامهم بغيره . وهم الآن على عربيتهم ، لم يفسد من كلامهم إلا القليل ، ولا يخلون من الإعراب

---

(١) المسالك والممالك ، مقتبس فى : ليبيا فى كتب الجغرافيا والرحلات ص ٣٠ .

(٢) المرجع ص ٣١ . وقد ورد النص فى معجم البلدان لياقوت ، ولكن مع وضع «أنباط» مكان أقباط ، ونبطية مكان قبطية (المرجع ص ٧٢) .

(٣) سكان ليبيا عند اليعقوبى ص ٢٢٩ . وقد توفى اليعقوبى عام ٢٨٤ هـ .

(٤) البيان والإعراب . مقتبس فى : ليبيا فى كتب التاريخ والسير ص ٢٤ .

(٥) بدأ العبدرى رحلته فى الخامس والعشرين من ذى القعدة عام ٦٨٨ هـ .

إلا بما لا قدر له بالإضافة إلى ما يعربون . وقد سألت بدويا لقيته يسقى إبله . عن ماء يقال له أبو شمال هل نمر عليه ... فقال لى : نعم تطئون أبا شمال وأثبت النون فى الفعل ونصب المفعول . وليس فى المغرب عربى ولا حضرى يفعل ذلك . ومررنا بأطفال منهم يلعبون فقال لنا واحد منهم : يا حجاج معكم شىء تبيعونه ، وأثبت النون وسكن الهاء للوقف . ورأيت أعرابيا منهم قد ألحت عليه امرأة تسأله عن طعام معه ، فقال لها : والله ماتذوقينه . فأتى بضمير المخاطبة على وجهه ، وأثبت النون ، وسكن الهاء . وسمعت شخصا ينشد فى الركب مكترى راحلة ويقول : من يكرى زاملة فسمعه بدوى فقال له : أعندك الزاملة ؟ فقال : نعم . قال: فلا تقل من يكرى وقل من يستكرى ... وأما نادر ألفاظ اللغة وما جرت عادة أهل الغريب بتفسيره فهم حتى الآن يتحاورون به على سجيتهم . فمن ذلك أن شخصا منهم وقف على بموضع نزولى من محلة الركب ، وكانت الترعة منه بعيدة فقال لى: يا سيدى «تدعنى أظهر» يعنى أخرج . وسألت شخصا منهم عن الطريق فقال: إذا ظهرتم من الغابة فخنوا صوب كذا وكذا ... يعنى إذا خرجتم منها . وهذا اللفظ قد أكثر فيه أهل الغريب فى تفسير قول عروة بن الزبير رضى الله عنه : ولقد حدثتنى عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى العصر والشمس فى حجرتها قبل أن تظهر ، وأتوا عليه بشواهد وأمثال . وسمعت صبيا منهم ينادى فى الركب : يا حجاج من يشترى الصفيف فلم يفهم عنه أكثر الناس ، فقلت له : أللحم معك ؟ فقال : نعم ، وأبرز لحم ظبى مقدد . وهذا اللفظ قد ذكره مالك فى الموطأ ... وسألت شخصا عن ماء ، هل هو معين ؟ فقال لى : هو ماء غدق . وهذا اللفظ فسره أبو عبيد فى غريبه ... وما يتكلمون به من الغريب أكثر من أن يحصى [1] .

---

(١) الرحلة المغربية للعبدرى تحقيق أحمد بن جدو ص ٨١ ، ٨٢ .

الفصل الثانى

التأثير المتبادل بين العربية والبربرية

إن وجود لغتين – أى لغتين – فى مكان واحد لايتصور معه أن تظل أى منهما بمنأى عن الأخرى وإنما لابد – مهما تكن نتيجة الصراع – من وقوع احتكاك بين اللغتين ، وتأثير من كلا الجانبين على الآخر . وإذا انتهى الصراع بموت إحدى اللغتين أو إقصائها من الميدان إلى منطقة محدودة ، فلا يعنى هذا أن اللغة المغلوبة قد ذهبت مع الرياح وطمست معالمها فى مناطق نفوذ اللغة الغالبة، فهى لابد وأن تترك قبل إخلائها الميدان معالم وملامح وتأثيرات ، قد تقل وقد تكثر بحسب كل حالة على حدة . وفى نفس الوقت ، فإن اللغة الغالبة لاتكتفى بإقصاء اللغة المغلوبة من طريقها ، وإنما لابد لها فى فترة الصراع من أن تترك آثارها ومعالمها على اللغة المغلوبة . ومعنى هذا أن الغالب والمغلوب فى معركة الصراع اللغوى لايخرج سالما ، ولاينجو من سهام الآخر . وهذا هو مانريد بحثه الآن لنرى مقدار ما لحق كلا من اللغتين العربية والبربرية من سهام الأخرى ، ومدى التأثير المتبادل بينهما .

أما تأثير العربية على البربرية فتأثير ضخم متعدد الجوانب ، ويتضح ذلك من النسب والبيانات الآتية :

١- يقول جوستاف لوبون : لقد تعربت البربرية - كما تعرب البربر أنفسهم - نتيجة لاتصالها باللغة العربية ... وإن نحو ثلث البربرية التى يتكلم بها سكان منطقة القبائل الكبرى يتألف من كلمات عربية . وأمر طريف مثل هذا يثبت لنا مرة أخرى مقدار تأثير العرب العظيم الذى لم يكتب مثله لأية أمة أخرى . ومن هذه الأمم اليونان والرومان الذين دام سلطانهم فى شمال إفريقية دوام سلطان العرب ، من غير أن يبقى للغتهم أى أثر فى اللغة البربرية[١] . ومن الكلمات العربية التى دخلت البربرية ، وقد راعينا أخذها من لهجات مختلفة[٢]. ما يأتى :

أ- هذه أبيات بالبربرية الميزابية للشاعر باجو صالح وتحتها ترجمتها الحرفية:

يلُّولد سـيدْنا مُحَمّد	تَضْوا الدُّونيت أسْ الأنوار
ولد سـيدنا محمد	وأشـرقت الدنيا بالأنوار
أرَبِّى زالْ اتْسَـلْمَدْ	فْوَاسِى سَجْدَ نْتاس الأشجار
اللهـم صـل وسـلم	على من سجدت له الأشـجار
تُوليدْ تَزِيرى نَرْسُول	تْشَعْشَعْ أمّاس نِيجَـنْوان
طلع بدر الرسـول	وأشـرق فى كـبد السماء
تْفَكْرانَغْ أسْ إيديلُّول	يا اللـه أنَـاوِى إيَزلْـوانْ
فذكرنا بيـوم ميلاده	هيا ننشـد أناشيد الأفراح

---

(١) حضارة العرب ص ٢٤٧ . وقد وردت نسبة الثلث كذلك فى تاريخ المغرب الكبير لدبوز ٤١٤/٣ .

(٢) يلاحظ أننا نمثل بأمثلة من البربرية الحديثة لبيان مدى التأثير العربى ، وذلك لأننا نعتقد أن هذا التأثير يرتد - ولا شك - إلى فترة الصراع بين اللغتين ، وهى فترة لا تتجاوز القرن السادس كماسبق أن ذكرنا .

وفى القصيدة كلمات أخرى مثل :

سَعْدك = ما أسعدك

يَمُّوتْ = توفى

باباس = أبوه

إيمْشَرَكَنْ = المشركون

عَنْجال = من أجل

سالمعجزات = بالمعجزات

سحّار = ساحر

سِلْمُعْجِزَاتَس = من معجزاته .

ومن الكلمات العربية الصرف فيها :

الكفار – القرآن – الإسلام – الحج – أرسول (أى : يارسول . ولاحظ همزة النداء) – الوقت – المحشر [١] .

ب– وفى بحث عن لهجة الشلحا التى تتكلم فى جنوب غربى مراكش ، وتعد واحدة من أكثر اللهجات البربرية انتشارا يقول Applegate : «وقد أثرت العربية على اللهجة كما يمكن أن يرى فى طرق العدّ . فهناك طريقتان : إحداهما تستعمل كلمات الشلحا ، والأخرى تستعمل كلمات عربية . وإن العد بطريقة الشلحا يستعمل بوجه عام بين النساء ، وكذا رجال المناطق النائية ، فى حين أن العد العربى يستعمله الرجال العاملون فى أعمال متصلة بغيرهم» [٢] . ومن قائمة الكلمات التى ذكرها المؤلف نلتقط الأمثلة الآتية ، والأصل العربى واضح فيها كل الوضوح .

---

(١) دبوز ١/٥٥ – ٥٨ .

(٢) An Outline of the Structure of Shilha ص ٣ من التصدير .

أفلح	= فلاح
أجزار	= جزار
أربعة	= أربعة
السلام عليكم	= السلام عليكم
باب الفرْح	= مفرح
بْدو	= يبدأ
هبْل	= سفيه
حَرْك	= يحرك
حَرْم	= يحرم
حْكم	= قاض[١] .

جـ- ومن الكلمات ذات الأصل العربى المستعملة فى بربرية منطقة الجبل الغربى :

سَبَّتْ	= السبت
لَحَدْ	= الأحد (إلخ أيام الأسبوع)
ألْغَم	= جمل
دهان	= سمن
ألْحالَنْك	= كيف حالك ؟
مايْ إسْمِنْك	= ما اسمك ؟
كما لْعُمْرَنْك	= كم عمرك ؟
مانى تَسْكَنْ	= أين تسكن
رمْضان	= رمضان[٢] .

---

(١) المرجع ص ٤٥ - ٥٥ .

(٢) المؤثرات الأجنبية فى عامية ليبيا . بحث مخطوط للأستاذ عبداللطيف سويسى ص ٤ - ٦ .

د- ومن كلمات اللهجة الطوارقية :

إلْحَراث	= المحراث
إطَّيَّارْ	= طائرة
أما ضَانْ	= راع
إلْقَلَمْ	= القلم
إلْكْتاب	= الكتاب
حيوان	= حيوان
إلاحاد	= الأحد
إلغاميس	= الخميس[١] .

٢- على الرغم مما أثر عن الطوارق من حروف كتبت بها لهجتهم من قديم ، فهم يكتبون بحروف عربية سواء العربية أو البربرية[٢] . ومثل هذا يصدق على سائر اللهجات البربرية ، فقد ذكر الأستاذ دبوز أن الكتب التى ألفت بالبربرية كتبت بالحروف العربية ، حيث كانت الكتابة البربرية قد اختفت حروفها من المغرب فى وقت مبكر ، وبقيت فى أعماق الصحراء الكبرى فى قبائل صنهاجة وغيرها ، ولم يبق منها فى المغرب الأوسط إلا حروف يستعملونها فى النقش والطراز والنسج حلية[٣] .

٣- أن معظم المؤلفات التى ألفها علماء من البربر قد كتبت باللغة العربية ، مثل الإيضاح للشيخ عامر الشماخى ، وقناطر الخيرات للشيخ إسماعيل

---

(١) المرجع ص ٧ ، ٨ .

(٢) Encyclopaedia Britannica ٣/٤٩٦ .

(٣) ٣/٤١٤ .

الجيطالى، والقواعد فى الشريعة الإسلامية للمؤلف السابق ، والوضع لأبى زكرياء ، والسير للشماخى ، والطبقات للدرجينى ، وسير الأئمة لأبى زكرياء ، ومدونة ابن غانم فى الحديث[١] . وكذلك ماروى من آثار أدبية نثرية أو شعرية عن أدباء البربر ، فلا تجد فيها أى مسحة بربرية ، ولا تكاد تميز عربيتها عن عربية أى بلد عربى آخر[٢] . وقد فشلت المحاولات التى بذلها بعضهم لجعل البربرية منافسة للعربية فى مجال التأليف فنظموا بها الشعر ، وترجموا إليها الكتب والدواوين ، حتى لقد نقلوا القرآن إليها . ولكنها – على حد تعبير الأستاذ عثمان الكعاك – «كانت كأعمال من يبنى صروح الورق فوق السافيات الذاريات فلم تمض عليها عشية أو ضحاها حتى هوت أركانها وانطمست آثارها»[٣] .

٤- يقول الأستاذ إبراهيم الكونى فى بحث له عن الطوارق ، معقبا على قول جوستاف لوبون : «إن البربر فى شمال إفريقية يتحدثون اللغة العربية بنسبة الثلث فى لغتهم الأصلية» : «وهذا ما حدث بالنسبة للغة الطوارق أيضا . وهذا التأثير يتجاوز الأطر اللفظية إلى صلب قواعد اللغة»[٤] .

٥- وقد دخلت البربرية بعض الأصوات التى لم تكن موجودة فيها ، وذلك تحت تأثير اللغة العربية مثل صوت العين . ومما يدل على دخول هذا الصوت البربرية مؤخرا عدم وجود رمز مستقل له عندهم[٥] . ويقول الأستاذ دبوز :

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية – تعليق اطفيش رقم ١ ص ٥١٨ ، ٥١٩ فى مادة بربر ، ودبوز ٣/٣٨٩ – ٣٩١ .

(٢) انظر : النشاط الثقافى فى ليبيا للمؤلف ، مبحث الأدب فى ظل الأباضيين ص ١٧٨ وما بعدها .

(٣) المجتمع التونسى فى عهد الأغالبة ص ٣٧ .

(٤) جريدة الثورة عدد ١٩٧٠/١/٦ .

(٥) انظر ما سبق أن كتبناه عن الخط البربرى .

«إن كتابة الطوارق فى الصحراء الكبرى - وهم الذين حفظوا لنا الخط البربرى باستعمالهم له حتى الآن - نجد فيها حرف العين . ولو اقتبس البربر القدماء حرف العين من الفينيقيين القدماء لوجدناه فى كتابتهم»[١] .

* * *

أما آثار البربرية على العربية فجد ضئيلة ، بشكل لافت للنظر . ولعل السبب فى ذلك يكمن فيما قاله الدكتور وافى : «لأن الصراع بين العربية والبربرية لم يكن عنيفا ولم تلق فى أثنائه اللغة الغالبة مقاومة شديدة من جانب اللغة المقهورة كانت الآثار فى اللغة العربية الغالبة ضئيلة»[٢] ، أو فيما قاله الأستاذ عثمان الكعاك من أن «اللغة البربرية وإن كانت لم تزل لغة أقوام كثيرين إلا أنها لم تبلغ فى عمرها درجة البيان ، ولم تسم إلى مستوى الأدب ... على أنها لها طنطنة عند التلفظ بها تذهب بما للغات من جمال الرنة الموسيقية وعذوبة المسمع ... وهى قليلة المفردات، ضيقة النطاق فى التعبير ، لأنها لم تكن لغة أدب أو علم . وهى لم تجار سواها من اللغات المستعملة ...»[٣] ، أو فيما قال الأستاذ سويسى عن «انكماش البربر فى شبه عزلة ، حيث إنه من الملاحظ أنهم يكونون ما يشبه مجتمعا داخل المجتمع، مجتمعا له تقاليده وعاداته ، لدرجة أنهم لايتزوجون من العرب ، ولايعطون بناتهم للعرب لأجل الحفاظ على الدماء البربرية الأصلية على حد زعمهم»[٤] .

---

(١) ١/٦٤، ٦٥ . ويلاحظ أن الكاتب لم يكن دقيقا فى ادعائه أن الطوارق هم الذين حفظوا لنا الخط البربرى.

(٢) علم اللغة ص ٢١٣ .

(٣) المجتمع التونسى فى عهد الأغالبة ص ٣٧ .

(٤) المؤثرات الأجنبية فى عامية ليبيا ص ٣ .

ومن بين هذه الآثار القليلة نذكر :

١- أسماء الأمكنة التى تبدأ بـ «تا» علامة التأنيث فى البربرية ، مثل تاجورة وتاغرمين وتاغمة وتاورغا [١] . وهنا مجموعة أخرى من الأسماء البربرية لاتبدأ بالتاء مثل زنزور وغدامس .

٢- كلمة «للّه» التى تعنى المرأة المعظمة . وهناك بئر تعرف باسم «بئر اللّه» حفرتها سيدة من الأسرة القرمنلية التى حكمت طرابلس . وقد أخذ العرب هذه الكلمة من البربر ، وصاروا يستعملونها فى تعظيم المرأة ، كما استعملها البربر . وكانت مستعملة أيضا فى بيوت رؤساء الحكومات من الترك فى طرابلس يطلقونها على النساء للتعظيم [٢] .

٣- من المعروف أن اللغة العربية لاتبدأ بساكن ، فى حين أن البربرية يكثر فيها البدء بالساكن [٣] . والظاهرة التى تلفت النظر فى عامية المغرب كثرة بدئها بالساكن . فكلمات مثل بحر وبصل ومطر تنطق بْحر ومْطر وبْصل . بل أكثر من هذا نجدهم ينطقون كلمات مثل محمد كما لو كانت مْحمد ويكتبونها بهمزة وصل قبلها هكذا : امحمد . ولا يبعد أن تكون هذه الظاهرة قد وجدت فى العامية المغربية بتأثير من البربرية . ويتضح تأثير هذه الظاهرة فى نطق كلمة «أبو بكر» اسم مكان فى ليبيا ، إذ تنطق «بُوبْكر» وهو النطق البربرى للكلمة [٤] .

---

(١) الزاوى : معجم البلدان ص ٧٦ ، ٧٨ .

(٢) المرجع ص ٥٠ .

(٣) انظر ما سبق أن كتبناه عن خصائص اللغة البربرية .

(٤) الزاوى : معجم البلدان ص ٦٧ .

ومع هذا فمن الممكن أن يخرِّج النطق المغربى لكلمات مثل : بحر ومطر ويصل بأحد وجهين عربيين هما :

١- أنه جاء وفقا للهجة العربية التى تقف على آخر الكلمة بالتشديد إذا كان الحرف الأخير صحيحا متحركا فى الوصل[١] .

٢- أنه جاء على نطق من ينقل النبر من المقطع الأول (كنطق المصريين) إلى المقطع الثانى ، وانتقال النبر من مقطع إلى مقطع ظاهرة شائعة فى الفصحى واللهجات .

ويرد بعضهم[٢] قلب الجيم زايا فى النطق الليبى لبعض الكلمات العربية إلى التأثير البربرى مثل كلمة «زَوْج» التى تنطق (زُوز) ، و «زنزور» (اسم مكان) التى يدعى أن أصلها جنزور ، و «زَرْدة» التى يدعى أن أصلها جردة ... وهكذا . ويؤيد هذا الفرض بما قاله ابن خلدون عند تفسيره لكلمة «زناتة» من أن أصلها مشتق من الاسم «جانا» ، وهو أبو القبيلة ، فجُمع أهل القبيلة فى اسم «جانات» ، ولم يكن ينطق البربر بهذه الجيم من مخرج الجيم عند العرب فهم يبدلونها زايا محضة، فصارت «زانات» . ونحن وإن كنا نسلم بما قاله ابن خلدون فلا نسلم بما رتبه عليه الباحث من آثار . فقلب الجيم زايا عند الليبيين مشروط بمصاحبة أصوات معينة مثل الزاى والسين بقصد تحقيق نوع من الانسجام الصوتى Sound harmony ، وذلك فى كلمات مثل عجوز (عزوز) وزوج (زوز) وجنس (زنس) وجبس (زبس) . أما كلمة زنزور التى ذكرها الكاتب فهى كلمة بربرية

---

(١) شرح الشافية ٣١٤/٢ ، ٣١٥ ، والصبان الأشمونى ٢١٠/٤ .

(٢) محمد فريد أبو حديد : «بعض ملاحظات فى اللهجة الليبية» – المؤتمر الخامس والعشرون لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ص ١٤٥ .

صرف ، ويخطىء من ينطقها جنزور بالجيم . وأما كلمة «زردة» التى يدعى أن أصلها جردة ، فلا دليل على دعواه ، والمادة بالزاى تدل على معنى الاستدارة أو التحلق ، كما تدل على معنى الازدراد والبلع ، وكلاهما ملحوظ فى «الزردة» حيث يتحلق المدعوون ويزدردون الطعام .

وأخيرا نرد إلى كلمة «هلّبه» وجهها العربى ، بعد أن ادعى بعضهم كذلك أنها لفظة بربرية . فالمادة فى كتب اللغة العربية تدل على معنى الكثرة والزيادة ، وهو نفس معناها فى عامية المغرب . ففى لسان العرب : رقبة هلباء كثيرة الشعر ، وعام أهلب أى خصب ، وهلبتهم السماء بلّتهم وأمطرتهم بجود ...

ونختم هذا الفصل بكلمة جوستاف لوبون التى يقول فيها : مع أن الفاتحين الذين ظهروا قبل العرب لم يستطيعوا أن يفرضوا على الأمم المغلوبة لغاتهم ، قَدَر العرب – على العكس من ذلك – على فرض لغتهم عليهم . ولما صارت اللغة العربية عامة فى جميع البلاد التى استولوا عليها حلت محل ما كان فيها من اللغات كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية ... وكان للغة العرب مثل ذلك الحظ زمنا طويلا ، حتى فى بلاد فارس ، على الرغم من يقظة الفرس . أى ظلت اللغة العربية فى بلاد فارس لغة أهل الأدب والعلم . وظل الفرس يكتبون لغتهم بالحروف العربية ، وكتب ما عرفته بلاد الفرس من علم الكلام والعلوم الأخرى بلغة العرب . وللغة العربية فى هذا الجزء من آسيا شأن كالذى كان للغة اللاتينية فى القرون الوسطى . وانتحل الترك أنفسهم وهم الذين قهروا العرب الخط العربى . ولاتجد فى تركيا إنسانا على شىء من التعليم لايستطيع أن يفهم لغة القرآن بسهولة»[1] .

---

(١) ص ٤٤٠ .

مراجع القسم الثانى

أولا : المراجع العربية

١- أحسن التقاسيم للمقدسى - بريل ١٩٠٦ .

٢- الأدب المغربى - محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفى - ط بيروت ١٩٦٠ ط أولى .

٣- أزمة المغرب الأقصى - روم لاندو ، وترجمة محمد إسماعيل وحسين الحوت - الأنجلو ١٩٦١ .

٤- الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الأباضية - البارونى - القسم الثانى .

٥- إفريقية الأرض والناس - محمد عبدالفتاح إبراهيم - الأنجلو المصرية .

٦- انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية - حسن إبراهيم حسن - النهضة المصرية - ط ثانية ١٩٦٣ .

٧- بعض ملاحظات فى اللهجة الليبية - محمد فريد أبو حديد - مجموعة البحوث والمحاضرات التى ألقيت فى مؤتمر المجمع ، ٢٥ ، ١٩٦٠ .

٨- البيان المغرب - ابن عذارى :

(أ) تحقيق كولان وبروفنسال - ليدن ١٩٤٨ .

(ب) مقتبس فى «ليبيا فى كتب التاريخ والسير» .

٩- تاريخ الجزائر فى القديم والحديث - مبارك الميلى - المطبعة الجزائرية - قسنطينة .

١٠- تاريخ الفتح العربى فى ليبيا - الطاهر أحمد الزاوى - دار المعارف بمصر - ط ثانية ١٩٦٣ .

١١- تاريخ اللغة العربية فى مصر - د. أحمد مختار عمر - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ .

١٢- تاريخ ليبيا منذ الفتح العربى حتى مطلع القرن التاسع الهجرى - د. إحسان عباس - دار ليبيا للنشر والتوزيع .

١٣- تاريخ المغرب العربى - د. سعد زغلول عبدالحميد - ط دار المعارف بمصر.

١٤- تاريخ المغرب الكبير - محمد على دبوز - ط أولى - ط الحلبى .

١٥- التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار - ابن غلبون - تحقيق الزاوى - ط ثانية ١٩٦٧ .

١٦- ثورات البربر - د. حسين مؤنس - مقالة بمجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول - مايو ١٩٤٨ .

١٧- جرمة فى عصر ازدهارها - محمد سليمان أيوب - بحث مقدم للمؤتمر التاريخى (١٦ - ٢٣ مارس ١٩٦٨) بليبيا .

١٨- جريدة الثورة ٦-١-١٩٧٠ - بحث بعنوان الطوارق - إبراهيم الكونى .

١٩- الجواهر المنتقاة - أبو القاسم بن إبراهيم - مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٨٤٥٦ ح .

٢٠- حضارة العرب - جوستاف لوبون - ترجمة عادل زعيتر - ط رابعة ١٩٦٤.

٢١- دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية .

٢٢- دائرة المعارف البستانى - ط بيروت ١٨٨١ .

٢٣- الدعوة إلى الإسلام - توماس أرنولد - ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين - النهضة المصرية ١٩٥٧ .

٢٤- الرباطات الساحلية الليبية - د. محمد عبدالهادى شعيرة - بحث مقدم للمؤتمر التاريخى بليبيا (١٦ - ٢٣ مارس ١٩٦٨) .

٢٥- رحلة التجانى - تقديم حسن حسنى عبدالوهاب - ط تونس ١٩٥٨ .

٢٦- الرحلة المغربية للعبدرى :

(أ) تحقيق وتقديم محمد الفاسى - الرباط ١٩٦٨ .

(ب) تحقيق أحمد بن جدو - الجزائر .

٢٧- سكان ليبيا عند اليعقوبى - د. عبدالقار طليمات - بحث مقدم للمؤتمر التاريخى (١٦ - ٢٣ مارس ١٩٦٨) بليبيا .

٢٨- السلالات البشرية - د. يسرى عبدالرزاق الجوهرى - ط أولى - ط المعارف ١٩٦٦ .

٢٩- الشعوب والسلالات الإفريقية - د. محمد عوض محمد - الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٣٠- الصحراء الكبرى - ريمون فيرون - ترجمة د. جمال الدين الدناصورى - سجل العرب ١٩٦٣ .

٣١- صور من وحدة الفكر العربى فى إفريقية - د. عبدالمجيد عابدين ، القاهرة ١٩٧٠.

٣٢- طبقات علماء إفريقية وتونس - أبو العرب - تحقيق على الشابى ونعيم حسن مؤنس .

٣٣- ظهر الإسلام - أحمد أمين - النهضة المصرية ١٩٦٢ .

٣٤- علم اللغة - د. على عبدالواحد وافى - نهضة مصر ١٩٦٢ .

٣٥- قادة فتح المغرب العربى - محمود شيت خطاب - ط أولى ١٩٦٦ .

٣٦- القيروان - د. الحبيب الجنحانى - الدار التونسية للنشر ١٩٦٨ .

٣٧- لهجة شمال المغرب - د. عبدالمنعم عبدالعال - دار الكاتب العربى ١٩٦٨ .

٣٨- ليبيا بين الماضى والحاضر - د. حسن سليمان محمود - الألف كتاب رقم ٤٢٦ .

٣٩- ليبيا فى كتب التاريخ والسير - د. إحسان عباس و د. محمد يوسف نجم - دار ليبيا للنشر والتوزيع .

٤٠- ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات - د. إحسان عباس و د. محمد يوسف نجم - دار ليبيا للنشر والتوزيع .

٤١- المؤثرات الأجنبية فى عامية ليبيا - عبداللطيف سويسى - بحث مخطوط .

٤٢- المجتمع التونسى فى عهد الأغالبة - عثمان الكعاك - تونس .

٤٣- المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول - د. شكرى فيصل - القاهرة ١٩٥٢.

٤٤- معجم البلدان الليبية - الطاهر أحمد الزاوى - ط أولى ١٩٦٨ .

٤٥- ملامح المغرب العربى -د . عبدالمنعم الشرقاوى ومحمد محمود الصياد - الاسكندرية ١٩٥٩ .

٤٦- الممالك الإسلامية فى غرب إفريقيا - بوفل - (مترجم) الأنجلو ١٩٦٨ .

٤٧- المنهل العذب - أحمد النائب الأنصارى - الجزء الأول ط ثانية والجزء الثانى ط أولى .

٤٨- النجوم الزاهرة - ابن تغرى بردى - ط دار الكتب المصرية .

٤٩- النشاط الثقافى فى ليبيا - من الفتح الإسلامى حتى بداية العصر التركى - د. أحمد مختار عمر - الجامعة الليبية ١٩٧١ .

٥٠- ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية - حسن حسنى عبدالوهاب - تونس ١٩٦٤ .

٥١- الوضع ابو زكريا الجناونى - (مقدمه المحقق إبراهيم أطفيش) ط أولى - القاهرة .

٥٢- ولاة طرابلس - الطاهر الزاوى - ط أولى ١٩٧٠ .

ثانيا – المراجع الأجنبية

1- AHistory of the Colonization of Africa, Sir H. H. Johnston, sec. ed. 1913 .

2- An Outline of the Structure of Shilha, J.R. Applegate, New York, 1958 .

3- A Study of Race in the Ancient Near East, W. H. Worrell, Cambridge, 1927 .

4- Encyclopaedia Britannica, 1970 .

5- Inscriptions in the Libyan Alphabet from Ghirza in Tripolitania, J. Reynolds and others. Antiquity, 32, 1958 .

6- Libyan Notes, D. Randall-Maciver & A. Wilkin, New York, 1901.

7- Misurata : A Market Town in Tripolitania, G. H. Blake, University of Durham, 1968.

8- Race of Africa, C. G. Seligman, 4th ed., 1960 .

9- Semitic and Hamitic Origins, G. A. Barton, London, 1934.

10- Some Aspects of the History of Libya, Abbas Hamdani,

11- The Bibliography of the Barbary States. Sir R. Lambert Playfair, patr 1. Tripoli and the Cyrencaica, London, 1889.

12- the Eastern Libyans, O. Bates, London, 1914.

13- The Latino-Libyan Inscriptions of Tripolitania, R. G. Goodchild, The Antiquaries Journal, No. 30, 1950.

14- The Mediterranian Race, G. Sergi, London, 1901 .

15- The Middle East Journal, Vol. 2, No. 3, Summar 1957, a review of Joseph Applegate book about the Shilha.

16- The Romance of the Nearest East, A. N. Scott, London, 1921.

كتب أخرى للمؤلف

* تاريخ اللغة العربية فى مصر - الهيئة العامة للتأليف والنشر - القاهرة ١٩٧٠ .
* النشاط الثقافى فى ليبيا من الفتح الإسلامى حتى بداية العصر التركى - منشورات الجامعة الليبية ١٩٧١ .
* البحث اللغوى عند العرب - مع دراسة لقضية التأثير والتأثر - عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧١ ، ١٩٧٦ ، ١٩٧٨ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٥ ، ١٩٨٨ .
* البحث اللغوى عند الهنود وأثره على اللغويين العرب - دار الثقافة ببيروت ١٩٧٢.
* أسس علم اللغة - ترجمة عن الإنجليزية - طبعتان ١٩٧٣ ، ١٩٨٣ - عالم الكتب بالقاهرة .
* من قضايا اللغة والنحو - عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٤ .
* ديوان الأدب للفارابى - تحقيق ودراسة - مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة - خمسة أجزاء ١٩٧٤ - ١٩٧٩ .
* المنجد فى اللغة لكراع - تحقيق بالاشتراك - عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٦ ، ١٩٨٨.
* العربية الصحيحة - عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨١ .
* اللغة واللون - دار البحوث العلمية بالكويت ١٩٨٢ .
* علم الدلالة - دار العروبة بالكويت ١٩٨٢ ، وعالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٨ .
* معجم القراءات القرآنية - ثمانية أجزاء - تأليف بالاشتراك - جامعة الكويت ١٩٨٥ ، ١٩٨٨ .
*- النحو الأساسى - تأليف بالاشتراك - ذات السلاسل بالكويت ١٩٨٤ ، ودار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٨٨ .
* المعجم العربى الأساسى - تأليف بالاشتراك - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ١٩٨٩ .
* دراسة الصوت اللغوى - عالم الكتب بالقاهرة - ١٩٩١ .
* أخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين - عالم الكتب بالقاهرة ١٩٩١.